آثار الشيخ زيد الفياض رحمه الله (١٩)

نصائح العلماء
للسلاطين والأمراء

تأليف فضيلة الشيخ
زيد بن عبد العزيز الفياض
رحمه الله
(١٣٥٠-١٤١٦هـ)

دار الألوكة للنشر

نصائح العلماء

للسلاطين والأمراء

الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ
الطبعة الثانية خاصة بدار الألوكة ١٤٣٧هـ

جميع الحقوق محفوظة

الألوكة

دار الألوكة للنشر
المملكة العربية السعودية - الرياض
هاتف: ٠٠٩٦٦١١٤٥٦٦٦٦٠ تحويلة ٣٣٣
ناسوخ: ٤٥٥٠٦٦٦ - ص . ب ٣٠٥٦٦٠ الرياض ١١٣٦١
dar@alukah.net

نصائح العلماء

للسلاطين والأمراء

تأليف فضيلة الشيخ

زيد بن عبد العزيز الفياض

رحمه الله

(١٣٥٠-١٤٤٦هـ)

دار الملوكة للنشر

بسم الله الرحمن الرحيم
١٤٣٠

المقدِّمة

الحمدُ لله ربِّ العالمين، وأصلِّي وأسلِّم على أشرف خلقه محمَّد، صلَّى الله عليه، وعلى آله وصحابته الذين تلقَّوا هذا الدِّين وبلَّغوه إلى الأمَّة نقيًّا صافيًا.

أمَّا بعدُ:

فما فتئ مِن ورَثة العلم النَّبويِّ وحَفَظة كتاب الله مَن يذُبُّ عن حَوزة الإسلام، ويدحَض الشُّبهات، ويردُّ على المعاندين؛ لنُصرة دين الله وإعلاء كلمته، وسيظلُّ هذا الدِّين - الذي هو خاتَم الأديان وأشملُها - خالدًا ظاهرًا إلى أن تقوم السَّاعة.

وقد كان من محاسن علماء الإسلام وحُماته أنْ جهَروا بالنُّصح واحتمَلوا الأذى، ولم يُحابوا أحدًا أو يداهنوه؛ إذ كانت المحاباة والمداهنة تنافي ما أُمروا به من قول الحقِّ والصَّدع بأمر الله، حتى عند غلَبة الهوى وتسلُّط الوُلاة وقسوة المتجبِّرين.

لقد فضَّلوا أن يُبرئوا ذمَّتهم، وأن يعلنوا الحقَّ في غير خفاء أو لفٍّ ودوران، ولقد تَمَّ لهم ما أرادوه من إبلاغ

الحقِّ، وإقامة الحجَّة في وضوح ونَصاعة، وظهورٍ يليق بهذا الحقِّ الذي يدعون إليه، وإن أصابَهم في سبيل ذلك ما أصابهم.

وإذا كانت الأمَّة الإسلاميَّة في أمسِّ الحاجة للالتفات نحو تاريخ سلَفِها الصَّالح؛ للاقتباس والاقتداء والاعتبار، فإنَّ هذه النَّاحية - ناحية النَّصيحة - والجهر بها من أهمِّ نواحي ذلك التَّاريخ الوضَّاء.

وقد خطرَت لي فكرةُ اختيار مجموعةٍ من مواعظَ ورسائلَ لبعض العلماء الأعلام، ونقَّبتُ وبحثتُ وجمعتُ هذه النُّخبة التي لم تكن من قبلُ مجموعةً في فنٍّ واحد أو كتاب واحد، ولكنَّها مبعثَرة بين كتب شتَّى، ولم يكن من أهدافي الحصرُ والاستيعاب، ولكنَّها نماذجُ يَحسُن أن يطَّلع عليها الجيلُ المتوثِّب، عسى أن يَجد فيها قبسًا يُضيفه إلى المشاعل التي ترَكها سلَفٌ أَماجِد؛ ليستنير بها مَن وُفِّق إلى الرَّشاد، فانتهج سُبل الفلاح وطريق النَّجاح.

والله الهادي إلى سواء السَّبيل، وهو حسبُنا ونعم الوكيل، وعليه الاعتماد، ومنه نسأل العون والتَّوفيق.

زيد بن عبد العزيز الفيَّاض

الدِّين النصيحة

النُّصوص الدالَّة على أهمِّية المناصَحة ومكانتها السَّامية، وما لها من شأن في الإسلام - كثيرة.

وذلك لما للنَّصيحة من أثرٍ فعَّال في تلافي الأخطاء والسَّير على نهجٍ قويم، وتجنُّب المزالق والمخاطر، والابتعاد عن مواطن الهَلَكة والزَّيغ والضَّلال.

والنَّصيحة حقٌّ للمسلم على المسلم، وواجبٌ له على أخيه، وتتأكَّد نحوَ ولاة الأمور؛ لما ينجُم عن سلوكهم المستقيم من نفعٍ عام، وما ينشأ عن اعوجاجِهم من أثرٍ سيِّئ على الناس، وما يعكسه من نتائجَ وخيمة.

لذا عبَّر الرسول ﷺ عن الدِّين بأنَّه النَّصيحة، وفي حديثٍ آخرَ النَّصُّ على مُناصَحة ولاة الأمور.

وفي "صحيح مسلم" عن أبي رقيَّة تميمِ بن أوسٍ الدَّاريِّ رضي الله عنه أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «الدِّين النَّصيحة» ثلاثًا، قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال: «لله ﷻ، وكتابه، ولرسوله ﷺ، ولأئمَّة المسلمين وعامَّتهم»، وفي "الصَّحيحين" عن

جَرير بن عبد الله قال: «بايعتُ النبيَّ ﷺ على إقامة الصَّلاة وإيتاء الزَّكاة والنُّصح لكلِّ مسلم».

وفي "المسنَد" عن حَكيم بن أبي يَزيدَ عن أبيه عن النبيِّ ﷺ قال: «إذا استَنصح أحدُكم أخاه، فليَنصَح له»، وفي "صحيح مسلم" عن أبي هُريرة عن النبيِّ ﷺ قال: «حقُّ المؤمن على المؤمن ستٌّ»، وذكَر منها: «إذا استنصَحك فانصَح له»، وفي "صحيح مسلم" عن أبي هُريرة عن النبيِّ ﷺ قال: «إنَّ الله يَرضى لكم ثلاثًا: يَرضى لكم أن تَعبدوه ولا تُشركوا به شيئًا، وأن تَعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرَّقوا، وأن تُناصِحوا مَن ولَّاه الله أمرَكم».

وفي "المسند" وغيره عن جُبير بن مُطعِم: أنَّ النبيَّ ﷺ قال في خطبته بالخَيْفِ من مِنًى: «ثلاثٌ لا يَغِلُّ عليهنَّ قلب امرئ مسلم: إخلاص العمل لله، ومُناصَحة ولاة الأمر، ولزوم جماعة المسلمين».

وروى أحمدُ عن عبد الله بن عمرو قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إذا رأيتم أمَّتي تَهاب الظَّالِمَ أن تقول له: إنَّك أنت ظالم، فقد تُوُدِّعَ منهم»، وقال

رسول الله ﷺ: «يكون في أمَّتي خسفٌ وقذفٌ ومَسخ».

وروى أحمدُ وابن ماجَه والطَّبرانيُّ والبيهقيُّ عن أبي أُمامة، قال: عرَض لرسول الله ﷺ رجلٌ عند الجَمْرَة الأولى، فقال: أيُّ الجهاد أفضل؟ فسكَت، فلمَّا رمى الثَّانيةَ سأله فسكت، ثم سأله عند العقَبة، فوضَع رجله في الغَرْز، ثمَّ قال: «أفضل الجهاد كلمةُ حقٍّ عند سلطان جائر».

وروى ابنُ ماجه من حديث أبي سعيد نحوَه، وروى أحمدُ والنَّسائيُّ والضِّياء والبيهقيُّ عن طارق بن شهاب مثلَه.

ورُوي عن الزُّهري مرسلًا: «أفضل الجهاد كلمة عدل عند إمام جائر».

ودخل أبو مسلم الخَوْلانيُّ على معاويةَ بنِ أبي سُفيان، فقال: السَّلام عليك أيُّها الأجير، فقالوا: قل: السَّلام عليك أيُّها الأمير، فقال: السَّلام عليك أيُّها الأجير، فقالوا: قل: السَّلام عليك أيُّها الأمير، فقال: السَّلام عليك أيُّها الأجير، فقالوا: قل: الأمير، فقال معاويةُ: دعوا أبا مسلم؛ فإنَّه أعلمُ بما يقول، فقال: إنَّما

أنت أجيرٌ استأجرك ربُّ هذه الغنَم لرعايتها، فإن أنت هنأتَ جَرْباها، وداوَيتَ مَرْضاها، وحبَست أُولاها على أُخراها - وفَّاك سَيِّدُها[١].

(١) "السِّياسة الشَّرعيَّه، في إصلاح الراعي والرعيَّه" لابن تيميَّة (ص٥-٦).

الشعبيُّ يقول الصِّدق معرِّضًا حياته للخطر

كان عامرٌ الشَّعبيُّ من خاصَّة ابن الأشعث، مُرافقًا له في جميع حروبه، فلَمَّا انهزم ابن الأشعث أمام الحجَّاج وأُسِر أصحابُه، أمَر الحجَّاجُ بقتل كلِّ أسير يُؤتى به، فلمَّا كثُروا عليه، صار يَقتُل مَن يقول: إنَّه مؤمن، أمَّا من اعتَرف بالكفر والنِّفاق على نفسه، فإنَّه يعفو عنه!

وأُسر عامرٌ الشَّعبيُّ فيمن أُسر، وأُتي به إلى الحجَّاج في ثورة غضَبه، وهو يقتل الأسرى الأوَّلَ فالأوَّل، إلَّا من باء على نفسه بالكفر والنِّفاق، فلمَّا سار عامرٌ الشَّعبيُّ إلى الدُّخول عليه، لقيَه رجلٌ من صَحابة الحجَّاج يُقال له: يزيدُ بن أبي مُسلم، وكان مَولاه وحاجبَه، فقال له: يا شعبي، لهفي بالعلم الذي بين دفَّتيك، وليس هذا بيوم شفاعة، إذا دخلتَ على الأمير، فبُؤ له بالكفر والنِّفاق عسى أن تنجو.

فلمَّا دخل الشعبيُّ على الحجَّاج، صادفه واضعًا رأسه لم يَشعُر، فلَمَّا رفع رأسه رآه، قال له: أنت أيضًا يا شعبيُّ

فيمن أعان وألَّب، قال: أصلحَ الله الأمير، إنِّي أُمِرتُ بأشياء أقولها أُرضيك بها، وأُسخِط الرَّبَّ، ولستُ أفعل، ولكنِّي أقول - أصلح الله الأمير - وأصدُقك القول، فإن كان شيءٌ ينفع لدَيك، فهو الصِّدق إن شاء الله:

أحزنَ بنا المَنْزل، وأجدبَ الجَناب، واكتحَلنا السَّهر، واستجلَسْنا الخوف، وضاق بنا البلدُ العريض، فوقَعنا في خِزْيَة لم نكن فيها بَرَرةً أتقياء، ولا فجرةً أقوياء، فقال له الحجَّاج: كذلك؟ قال: نعم، أصلح الله الأميرَ، وأمتع به.

قال: فنظر الحجَّاج إلى أهل الشَّام، فقال: صدقَ واللهِ يا أهلَ الشام، ما كانوا بررةً أتقياء، فيتورَّعوا عن قتالنا، ولا فجرةً أقوياء فيَقوَوا علينا، ثم قال: انطلِقْ يا شعبيُّ، فقد عفَونا عنك، فأنت أحقُّ بالعفو ممَّن يأتينا، وقد تلطَّخ بالدِّماء، ثم يقول: كان وكان.

روى ابنُ خَلِّكان قال: لمَّا وَلِي عمرُ بنُ هُبيرةَ الفَزاريُّ العراقَ، وأضيف إليه خُرَاسان، وذلك في أيَّام يزيد بن عبد الملك، استدعى الحسنَ البصريَّ، ومحمَّدَ بن سيرين والشَّعبي، وذلك في سنة ثلاث ومئة، فقال لهم: إنَّ يزيدَ خليفةُ الله، استخلَفه على عباده، وأخذ عليهم الميثاقَ

بطاعته، وأخذ عهدنا بالسَّمع والطَّاعة، وقد ولَّاني ما ترَون، فيكتب إليَّ بالأمر من أمره، فأقلِّده ما تقلَّدَه مِن ذلك الأمر، فما ترَون؟ فقال ابن سيرين والشعبيُّ قولًا فيه تقيَّة، قال ابنُ هبيرة: ما تقول يا حسَن؟

فقال: يا ابنَ هُبيرة، خَفِ اللهَ في يَزيد، ولا تَخَفْ يزيدَ في الله؛ إنَّ الله يَمنعك من يزيد، وإنَّ يزيد لا يمنعك من الله، وأوشكَ أن يبعَث إليك مَلَكًا، فيُزيلك عن سريرك، ويُخرجك من سَعَة قصرك إلى ضِيق قبرك، ثمَّ لا ينجيك إلَّا عمَلُك.

يا ابنَ هُبَيْرَة، إنْ تعصِ الله، فإنَّما جعل الله هذا السُّلطان ناصرًا لدين الله وعباده، فلا تركبنَّ دين الله وعبادَه لسلطان الله، فإنَّه لا طاعةَ لمخلوقٍ في معصية الخالق.

فأجازهم ابنُ هبيرة، وأضعف جائزة الحسَن، فقال الشَّعبيُّ لابن سيرين: سَفْسَفْنا له، فسَفْسَفَ لنا!

سعيد بن المسيِّب يرفُض مقابلةَ الخليفة؛ لأنَّه لا يرغب أن يكون من حُدَّاثِه

قال ميمونُ بن مِهْران: قدِمَ عبدُ الملك بنُ مَرْوان المدينة، فامتنعَت منه القائلة، واستيقَظ، فقال لحاجبه: انظر هل في المسجد أحدٌ من حُدَّاثنا من أهل المدينة؟ فخرج فإذا سعيد بن المسيِّب في حلقة له، فقام حيث ينظرُ إليه، ثم غمَزه وأشار إليه بأصبَعِه، ثم ولَّى، فلم يتحرَّك سعيدٌ ولم يتبَعْه، فقال: أراه فَطِنَ، فجاء فَدَنا منه، ثم غمَزه وأشار إليه، وقال: ألم تَرَني أُشير إليك؟ قال: وما حاجتُك؟ قال: استيقظَ أميرُ المؤمنين، فقال: انظر في المسجد أحدًا من حُدَّاثي، فأَجِبْ أميرَ المؤمنين، قال: فأَرسَلك إليَّ؟ قال: لا، ولكن قال: اذهب فانظُر بعضَ حُدَّاثنا من أهل المدينة، فلم أرَ أحدًا أهيأ منك.

فقال سعيد: اذهبْ فأعلِمه أنِّي لستُ مِن حُدَّاثه، فخرج الحاجب وهو يقول: ما أرى هذا الشَّيخ إلَّا مَجنونًا، فأتى عبدَ الملك، فقال له: ما وجدتُّ في المسجد إلَّا شيخًا أشرتُ إليه فلم يقُم، فقلتُ له: إنَّ أمير

المؤمنين قال: انظر هل ترى في المسجد أحدًا من حدَّاثي، فقال: إنِّي لستُ من حدَّاث أمير المؤمنين، وقال لي: أعلِمه، فقال عبد الملك: ذاك سعيد بن المسيِّب، فدَعْه!

الزُّهْريُّ يُبطل مزاعم المتملِّقين

دخل محمَّد بن شهاب الزُّهْريُّ على الوليد بن عبد الملك، فقال: يا ابنَ شهاب، ما حديثٌ يحدِّثنا به أهلُ الشَّام؟ قال: وما هو يا أمير المؤمنين؟ قال: حدَّثونا أنَّ الله - تبارك وتعالى - إذا استرعى عبدًا رعيَّة كتَب له الحسنات، ولم يكتب عليه السيِّئات!

قال: كَذَبوا يا أمير المؤمنين، أنَبِيٌّ خليفةٌ أقربُ إلى الله، أم خليفةٌ ليس بنَبِيٍّ؟ قال: بل نبيٌّ خليفة، قال: فأنا أحدِّثك يا أمير المؤمنين بما لا تشكُّ فيه، قال الله تعالى لنبيِّه داود: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ ٢٦﴾ [ص: ٢٦]، يا أمير المؤمنين، فهذا وعيد الله لنبيٍّ خليفة، فما ظنُّك بخليفةٍ غير نبي؟! فقال الوليد: إنَّ النَّاس ليَغرُّونَنا عن ديننا[1].

(١) "سراج الملوك".

موعظة سَلَمَة بن دينار لسُليمان بن عبد الملك

لمَّا حجَّ سليمانُ بن عبد الملك استحضرَ أبا حازم، فقال له: تكلَّم يا أبا حازم، قال: فيمَ أتكلَّم؟ قال: في الخروج من هذا الأمر، قال: يَسيرٌ إنْ أنتَ فعلتَه، قال: وما ذلك؟ قال: لا تأخذ الأشياءَ إلَّا بِحَقِّها ولا تضَعها إلَّا في أهلها، قال: ومن يَقوَى على ذلك؟ قال: مَن قلَّده الله من الأمر ما قلَّدَك.

قال: عِظْني يا أبا حازم، قال: يا أميرَ المؤمنين، إنَّ هذا الأمر لم يصِلْ إليك إلَّا بِمَوت مَن كان قبلَك، وهو خارجٌ منك بمثل ما صار إليك، ثمَّ قال: يا أميرَ المؤمنين، نَزِّه ربَّك في عظمته عن أن يراك حيث نهاك، أو يفقِدَك حيث أمرَك.

يا أميرَ المؤمنين، إنَّما أنت سوقٌ؛ فما نَفَقَ عندك حُملَ إليك من خير أو شر، فاختَر لنفسك أيَّهما شئت.

قال: فما لك لا تأتينا؟ قال: وما أصنعُ بإتيانك؟ إن أدنَيتني فتنتَني، وإن أقصيتني أحزنتني، وليس عندك ما

أخافُك عليه، ولا عندك ما أرجوك له.

قال: فارفَع إلينا حوائجَك، قال: قد رفعتُها إلى مَن هو أقدرُ منك عليها، فما أعطاني منها قبلتُ، وما منعَني منها رضيت، يقول الله تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا﴾ [الزخرف: ٣٢]، فمن ذا الذي يستطيع أن ينقُص من كثير ما قسم الله، أو يَزيد في قليل ما قسم الله؟

فبكى سليمانُ بكاءً شديدًا، فقال رجلٌ من جُلسائه: أسأتَ إلى أمير المؤمنين، قال أبو حازم: اسكت، فإنَّ الله أخذ ميثاقَ العلماء ليُبيِّنُنَّه للنَّاس ولا يكتمونه، ثم خرج من عنده، فلمَّا وصل إلى منزله، بعث إليه بمالٍ فرَدَّه، وقال للرَّسول: قل له: يا أميرَ المؤمنين، والله ما أرضاه لك، فكيف أرضاه لنفسي[1]؟!

(١) أورد كثيرًا من هذه القصص أبو بكر الطَّرْطُوشيُّ في كتابه "سراج الملوك"، وابنُ كثير في "تاريخه"، وغيرُهما.

أبو حازم سلمةُ بن دينار وبعض الأمراء

أرسل بعضُ الأمراء إلى أبي حازم، فأتاه وعنده الإفريقيُّ والزُّهْريُّ وغيرهما، فقال له: تكلَّم يا أبا حازم، فقال أبو حازم: إنَّ خيرَ الأمراء من أحبَّ العلماء، وإنَّ شرَّ العلماء مَن أحبَّ الأمراء، وإنَّه كان فيما مَضَى إذا بعَث الأمراءُ إلى العلماء لم يأتوهم، وإذا أعطَوهم لم يقبَلوا منهم، وإذا سألوهم لم يرخِّصوا لهم، وكان الأمراء يأتون العلماءَ في بيوتهم فيسألونهم، فكان في ذلك صلاحٌ للأمراء، وصلاحٌ للعلماء.

فلمَّا رأى ذلك أناسٌ من النَّاس، قالوا: ما لنا لا نطلب العلمَ حتَّى نكون مثل هؤلاء؟! فطلبوا العلم فأتَوُا الأمراءَ فحدَّثوهم، فرخَّصوا لهم، وأعطَوهم فقبلوا منهم، فجَرُؤَتِ الأمراءُ على العُلماء، وجرُؤَت العلماءُ على الأُمراء[1]!

(١) "حِلية الأولياء" لأبي نُعيم (٣/ ٢٤٣-٢٤٤).

أبو حازم عند سليمان بن عبد الملك

وعن عبد الله بن يحيى بن أبي كثير عن أبيه قال: دخل سليمان بن عبد الملك المدينةَ حاجًّا، فقال: هل بها رجل أدرك عِدَّة من الصَّحابة؟ قالوا: نعم، أبو حازم، فأرسل إليه، فلمَّا أتاه، قال: يا أبا حازم، ما هذا الجَفاء؟ قال: وأيَّ جَفاء رأيتَ منِّي يا أمير المؤمنين؟ قال: وجوه النَّاس أتَوني، ولم تأتني! قال: والله، ما عرفتَني قبل هذا، ولا أنا رأيتُك، فأيَّ جفاء رأيتَ منِّي؟ فالتفتَ سليمانُ إلى الزُّهريِّ، فقال: أصابَ الشَّيخ وأخطأتُ أنا.

فقال: يا أبا حازم، ما لنا نَكرَه الموت؟ فقال: عمَّرتُم الدُّنيا، وخرَّبتم الآخرة، فتَكرهون الخروجَ من العُمران إلى الخراب، قال: صدَقتَ، فقال: يا أبا حازم، ليتَ شِعري ما لنا عندَ الله تعالى غدًا؟ قال: اعرِضْ عَمَلَك على كتاب الله ﷻ، قال: وأين أجدُه من كتاب الله تعالى؟ قال: قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤]، قال سليمان: فأين رحمة الله؟ قال أبو حازم: قريبٌ من المحسنين، قال

سليمان: ليت شعري كيف المَفرُّ من الله غدًا؟ قال أبو حازم: أمَّا المحسِن كالغائب يَقْدَم على أهله، وأمَّا المسيء كالآبق يُقدَم به على مولاه، فبكى سليمانُ حتى علا نحيبُه، واشتدَّ بكاؤه.

فقال: يا أبا حازم، كيف لنا أنْ نُصلِح؟ قال: تَدَعون عنكم الصَّلَف، وتَمَسَّكون بالمروءة، وتَقسِمون بالسَّوية، وتَعدِلون في القضيَّة، قال: يا أبا حازم، وكيف المأخذُ من ذلك؟ قال: تأخذه بحقِّه، وتضعه بحقٍّ في أهله.

قال: يا أبا حازم، مَن أفضلُ الخلائق: قال: أُولُو المروءة والنُّهى.

قال: فما أعدَلُ العدل؟ قال: كلمةُ صِدقٍ عند من ترجوه وتَخافه.

قال: فما أسرع الدُّعاء إجابةً؟ قال: دعاء المحسن للمحسنين.

قال: فما أفضل الصَّدقة؟ قال: جهد المقلِّ إلى يد البائس الفقير، لا يتبعها مَنٌّ ولا أذًى.

قال: يا أبا حازم، مَن أكيس النَّاس؟ قال: رجلٌ ظفِر

بطاعة الله، فعمِلَ بها، ثم دلَّ الناسَ عليها.

قال: فمن أحمق الخلق؟ قال: رجل اغتاظ في هوى أخيه وهو ظالم له، فباع آخرتَه بدُنياه.

قال: يا أبا حازم، هل لك أن تصحَبَنا وتُصيبَ منَّا ونُصيبَ منك؟ قال: كلَّا، قال: ولِمَ؟ قال: إنِّي أخاف أنْ أركن إليكم شيئًا قليلًا، فيُذيقَني الله ضِعفَ الحياة وضِعفَ الممات، ثم لا يكونَ لي منه نصيرٌ.

قال: يا أبا حازم، ارفع إلَيَّ حاجتك؟ قال: نعم، تُدخِلني الجنَّة، وتُخرجني من النَّار، قال: ليس ذلك إليَّ، قال: فما لي حاجة سواها.

قال: يا أبا حازم، فادعُ الله لي، قال: نعم، اللَّهم إن كان سليمانُ من أوليائك، فيسِّره لخير الدُّنيا والآخرة، وإن كان من أعدائك فخُذ بناصيته إلى ما تُحِبُّ وتَرضى، قال سليمانُ: قطُّ؟! قال أبو حازم: قد أكثرتُ وأطنبتُ؛ إن كنتَ أهلَه، وإن لم تكُن أهله، فما حاجتُك أن ترميَ عن قوس ليس لها وتَر؟!

قال سليمان: يا أبا حازم، ما تقول فيما نحن فيه؟

قال: أَوَتُعفيني يا أمير المؤمنين؟ قال: بل نصيحة تُلقيها إليَّ، قال: إنَّ آباءَك غصَبوا الناسَ هذا الأمر، فأخذوه عَنْوةً بالسَّيف من غير مشورة ولا اجتماع من الناس، وقد قتَلوا فيه مقتلةً عظيمة وارتحَلوا، فلو شعَرتَ ما قالوا وقيل لهم؟ فقال رجلٌ من جُلسائه: بئس ما قلت! قال أبو حازم: كذَبتَ؛ إنَّ الله تعالى أخَذ على العُلماء الميثاقَ ليُبَلِّغُنَّه للنَّاس ولا يكتمونه.

قال: يا أبا حازم، أوصني، قال: نعم، سوف أوصيك وأُوجز: نَزِّه الله تعالى وعظِّمْه أن يراك حيث نَهاك، أو يفقِدَك حيث أمرَك.

ثم قام، فلما وَلَّى قال: هذه مئة دينار أَنفِقها، وعندي لك أمثالُها كثير، فرَمى بها، وقال: والله، ما أرضاها لك، فكيف أرضاها لنفسي؟! إنِّي أعيذُك بالله أن يكونَ سؤالُك إيَّاي هَزْلًا، ورَدِّي عليك بَذْلًا.

إنَّ موسى بن عمران لما وَرَدَ ماء مدين، قال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤]، فسأل موسى عليه السلام رَبَّه ﷻ ولم يسألِ النَّاس، ففطَنَت الجاريتان ولم تَفطُن الرُّعاة لما فطَنَتا إليه، فأتيَا أباهما شُعيبًا عليه السلام

فأخبرَتاه خبره، قال شعيبٌ: ينبغي أن يكون هذا جائعًا، ثم قال لإحداهما: اذهبي ادعِيه، فلمَّا أتته أعظمَته، وغطَّت وجهَها، ثم قالت: ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ﴾ [القصص: ٢٥].

فلما قالت: ﴿لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ [القصص: ٢٥]، كره موسى عليه السلام ذلك، وأراد ألَّا يَتبعَها، ولم يجد بُدًّا من أن يتبعَها؛ لأنَّه كان في أرضِ مَسبَعةٍ وخوف، فخرج معها، وكانت امرأةً ذات عَجُز، فكانت الرِّياح تَصرِف ثوبَها، فتصف لموسى عليه السلام عَجيزتَها، فيَغضُّ مرَّة ويُعرض أخرى، فقال: يا أَمَةَ الله، كوني خَلْفي.

فدخل موسى إلى شُعيبٍ - عليهما السَّلام - والعَشاء مهيَّأ، فقال: كُل، فقال موسى عليه السلام: لا، قال شعيبٌ: ألستَ جائعًا؟ قال: بلى، ولكنِّي من أهل بيتٍ لا يَبيعون شيئًا من عمَل الآخرة بمِلْءِ الأرض ذَهبًا؛ أخشى أن يكون هذا أجرَ ما سقَيتُ لهما، قال شعيبٌ عليه السلام: لا يا شابُّ، ولكن هذه عادتي وعادةُ آبائي؛ قِرَى الضَّيْف، وإطعامُ الطَّعام، قال: فجلس مُوسى عليه السلام فأكل.

فإن كانت هذه مئةُ الدِّينار عِوضًا عمَّا حدَّثتُك، فالمَيتةُ

والدَّمُ ولحمُ الخِنْزير في حال الاضطرار أحلُّ منه، وإن كانت من مال المسلمين، فلي فيها شُركاءُ ونُظَراءُ إن وازَيتُهم، وإلَّا فلا حاجةَ لي فيها.

إنَّ بني إسرائيل لم يزالوا على الهدى والتُّقى حيث كانت أمراؤهم يأتون إلى عُلمائهم؛ رَغْبَةً في عِلمهم، فلمَّا نُكِسوا ونَفَسوا وسقَطوا من عين الله تعالى، وآمَنوا بالجِبْت والطَّاغوت، كان علماؤهم يأتون إلى أمرائهم، ويشاركونهم في دُنياهم، وشُرِّكُوا معهم في قتلهم.

قال ابن شهاب: يا أبا حازم، إيَّاي تعني، أو بي تُعرِّض؟ قال: ما إيَّاك اعتمَدتُّ، ولكن هو ما تسمع، قال سليمانُ: يا ابن شهاب، تعرفُه؟ قال: نعم، جاري منذ ثلاثين سنة، ما كلَّمتُه كلمةً قطُّ، قال أبو حازم: إنَّك نسيتَ الله، فنسيتَني، ولو أحببتَ الله تعالى لأحبَبْتَني.

قال ابن شهاب: يا أبا حازم، تَشتُمني؟

قال سليمان: ما شتَمك، ولكن شتَمتَ نفسَك، أمَا علمتَ أنَّ للجار على الجارِ حقًّا كحقِّ القَرابة؟!

فلمَّا ذهب أبو حازم، قال رجلٌ من جلساء سليمان:

يا أمير المؤمنين، تُحبُّ أن يكون الناس كلُّهم مثلَ أبي حازم؟ قال: لا[١].

وقال سفيان بن عُيَيْنة: كتَب أميرُ المؤمنين إلى أبي حازم، وقال إبراهيم: كتب سليمانُ إلى أبي حازم: ارفع إلَيَّ حاجَتَك، قال: هيهات، رفعتُ حوائجي إلى من لا يَختزن الحوائج، فما أعطاني منها قنِعتُ، وما أمسكَ عنِّي منها رَضِيت[٢].

(١) "حِلية الأولياء" لأبي نُعيم (٣/ ٢٣٤-٢٣٧).
(٢) "حلية الأولياء" لأبي نُعيم (٣/ ٢٣٧).

محمَّد بن واسع وبلال بن أبي بُردة

قال محمد بن واسع الأزدي: دخلتُ على بلال بن أبي بُردة، فقلتُ له: يا بلال، إنَّ أباك حدَّثني عن أبيه عن النَّبي ﷺ قال: «إنَّ في جهنَّم واديًا يقال له: هَبْهَب، حقٌّ على الله أن يُسكِنه كلَّ جبَّار»، فإيَّاك يا بلالُ، أن تكونَ ممَّن يسكنه[١].

ابن واسع وبلال بن أبي بُردة

ولمَّا دخل محمَّد بن واسع العابدُ على بلال بن أبي بردة أميرِ البَصرة، وكان ثوبُه إلى نصف ساقه، فقال له بلال: ما هذه الشُّهرةُ يا ابنَ واسع؟ فقال له ابنُ واسع: أنتم شهَرتُمونا، هكذا كان لباسُ مَن مضى، وإنَّما أنتم طوَّلْتم ذيولَكم، فصارت السُّنة بينكم بِدْعًا وشُهرة[٢].

(١) "أخبار القضاة" (٢/ ٢٥)، وكان بلال بن أبي بردة أميرًا على البصرة وقاضيًا.

(٢) "سراج الملوك".

مالك بن دينار جريءٌ في الحقِّ

يُروى أنَّ بلال بن أبي بُردة خرَج في جنازة وهو أمير على البصرة، فنَظر إلى جماعةٍ وُقوف، فقال: ما هذا؟ قالوا: مالكُ بن دينار يذكِّر النَّاس، فقال لِوَصيفٍ معه: اذهب إلى مالك بن دينار، فقل له: يرتفع إلينا إلى القبر، فجاء الوصيفُ فأدَّى الرِّسالة إلى مالك، فصاح به مالكٌ: ما لي إليه حاجَةٌ فأجيئَه فيها، فإن تكن له حاجة، فلْيَجِئ إلى حاجةِ نفسه.

فلمَّا دفنَوا مَيِّتَهم، قام بلالٌ بمن معه إلى حلقة مالكٍ، فلمَّا دنا منه نزل، ونزَل مَن معه، ثم جاء يَمشي إلى الحلقة حتى جلس، فلمَّا رآه مالكُ بنُ دينار سكَت فأطال السُّكوت، فقال له بلالٌ: يا أبا يَحيى، ذَكِّرنا؟ فقال: ما نسيتَ شيئًا فأذكِّرَك به، قال: فحدِّثنا، قال: أمَّا هذا، فنعَم، قَدِم علينا أميرٌ من قبلك على البصرة، فمات فدفنَّاه في هذه الجَبَّانة، ثم أُتينا بزَنجيٍّ فدفنَّاه إلى جنبه، والله ما أدري أيُّهما كان أكرمَ على الله سبحانه.

فقال بلال: يا أبا يَحيى، أتدري ما الذي جَرَّأك علينا، وما الذي أسكتَنا عنك؟ لأنَّك لم تأكُلْ من دراهِمِنا شيئًا، أَمَا والله، لو أخذتَ من دراهمنا شيئًا، ما اجترأتَ علينا هذه الجُرأة[١].

ولَمَّا نظر مالك بن دينار إلى المهلِّب بن أبي صُفرة يجرُّ أذياله، ويتبختَر في أثواب خُيَلائه، فناداه أنِ ارفَع من ثيابك، فقال له المهلِّب: أوَما تعرفُني؟ قال له مالك: بلى، إنِّي أعرفك، أوَّلُك نُطفة مَذِرَه، وآخرك جِيفة قَذِرَه، وأنت فيما بين ذلك تحمل العَذِره[٢].

(١) "سراج الملوك".
(٢) "سراج الملوك".

طاوس يعِظ هشامَ بن عبد الملك

لمَّا قَدِم هشامُ بن عبد الملك مكَّة حاجًّا أيَّام خلافته، قال: ائتوني برجلٍ من الصَّحابة، فقيل: قد تَفانَوا، قال: فمِن التَّابعين، فأُتي بطاوسَ اليماني، فلمَّا دخَل عليه، خلع نعلَه بحاشية بِساطه، ولم يسلِّم عليه بإمرة المؤمنين، بل قال: السَّلام عليك، ولم يَكنِه، وجلس بإزائه، وقال: كيف أنت يا هشام؟ فغضب هشام غضبًا شديدًا، وقال: يا طاوس، ما الذي حَمَلك على ما صنعتَ؟! فقال: وما صنعتُ؟! فازداد غضبًا، وقال: خلعتَ نعلكَ بحاشية بِساطي، ولم تسلِّم عَلَيَّ بإمرة المؤمنين، ولم تكنِني، وجلستَ بإزائي!

فقال طاوس: أَمَّا خلع نعلي بحاشية بِساطك، فإني أخلعُها بين يدي ربِّي كلَّ يوم خمسَ مرَّات، فلا يغضبُ عليَّ لذلك.

وأمَّا قولك: لم تسلِّم عليَّ بإمرة المؤمنين، فليس كلُّ الناس راضين بإمرتك، فكرهتُ أن أَكْذِب.

وأمَّا قولك: لم تكنِني، فإن الله تعالى سمَّى رُسُله، فقال: يا داود، يا يحيى، يا نوح، يا عيسى، وكنَّى أعداءَه، فقال: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾ [المسد: ١].

وأمَّا قولك: جلستَ بإزائي فإنِّي سمعتُ أمير المؤمنين عليًّا رضي الله عنه يقول: إذا أردتَّ أن تنظرَ إلى رجل من أهل النار، فانظر إلى رجل جالسٍ، وحوله رجالٌ قيام.

فقال هشام: عِظْني، فقال طاوس: سمعتُ أمير المؤمنين عليًّا يقول: إنَّ في جهنم حَيَّاتٍ كالتِّلال، وعَقَاربَ كالبِغال، تلدَغُ كلَّ أمير لا يعدِل في رعيَّته.

ثم قام عنه وترك مجلسَه[1].

(١) "مجلَّة الفكر الإسلامي"، من مقال للأستاذ عمر القميري، شهر ربيع الأوَّل، ١٣٩٥ هـ.

أيُّ الكتابين أحقُّ بالطَّاعة؟

ودخل أبو النَّضر سالِمٌ مولى عمر بن عبيد الله على عاملٍ للخليفة، فقال له: يا أبا النَّضر، إنَّه تأتينا كتبٌ من عند الخليفة فيها وفيها، ولا نجد بُدًّا من إنفاذها، فماذا ترى؟ قال أبو النَّضر: قد أتاك كتابُ الله قبل كتاب الخليفة، فأيَّهما اتَّبعتَ كنتَ من أهله.

عمرُ بن عبد العزيز يطلب النَّصيحة

سأل عمرُ بن عبد العزيز محمَّدَ بن كعبٍ القُرَظيَّ، فقال: صِفْ لي العدل، فقال: كلُّ مسلم أكبرُ منك، فكُن له ولدًا، ومن كان أصغرَ منك، فكن له أبًا، ومن كان مِثلَك، فكُن له أخًا، وعاقِب كلَّ مُجرم على قدر جُرمه، وإيَّاك أن تضرب مُسلمًا سوطًا واحدًا على حقدٍ منك، فإنَّ ذلك يُصيِّرك إلى النَّار(١).

حضر أبو قِلَابة مجلسَ عمر بن عبد العزيز، فقال له: عِظني، قال: مِن عهد آدمَ إلى وَقتنا هذا لم يبقَ خليفةٌ سِواك، فقال: زِدني، فقال: أنت أوَّل خليفة يَموت، فقال: زِدني، فقال: إن كان الله معك، فمِمَّ تخاف؟ وإن لم يكن معك، فإلى مَن تلتجئ؟ قال: حسبي ما قلتَ(٢).

سأل عمرُ بن عبد العزيز يومًا أبا حازم الموعظةَ، فقال له أبو حازم: إذا نِمْتَ فضعِ الموت تحت رأسك، وكلُّ ما أحببتَ أن يأتيكَ الموتُ وأنت عليه مصرٌّ،

(١) "التِّبر المسبوك، في نصيحة الملوك" للغزالي (ص ١٩).
(٢) "التِّبر المسبوك، في نصيحة الملوك" للغزالي (ص ٢٠).

فالتزِمه، وكلُّ ما لا تريد أن يأتيك الموتُ وأنت عليه، فاجتنِبه، فربَّما كان الموت منك قريبًا[١].

(١) "التبر المسبوك، في نصيحة الملوك" للغزالي (ص٢١).

احذَر

كان هشامُ بن عبد الملك من خلفاء بني أميَّة، فسأل يومًا أبا حازم، وكان من العلماء: ما التَّدبير في النَّجاة من أمور الخلافة؟ قال: أن تأخذَ الدِّرهم الذي تأخذه من وجهٍ حلال، وأن تضعَه في موضع حق، قال: من يَقدِر على هذا؟! قال: من يَرغَب في نعيم الجِنان، ويَرهَب من عذاب النِّيران[1].

وروى زيدُ بن أسلم عن أبيه قال: قلتُ لجعفرِ بن سُليمان بن عبد الله بن أبي طالبٍ الهاشميِّ والي المدينة: احذر أن يأتِيَ رجلٌ غدًا ليس له في الإسلام نسبةٌ ولا أبٌ ولا جدٌّ، فيكون أولى برسول الله ﷺ منك، كما كانت امرأةُ فرعون أولى بنوح ولوطٍ عليهما السَّلام من زوجَيهما، وكما كانت زوجةُ نوح ولوط أولى بفرعون من زوجته، من أبطأ به عملُه لم يُسرِع به نسبُه، ومن أسرع به عملُه لم يبطئ به نسَبُه.

(١) "التِّبر المسبوك، في نصيحة الملوك" (ص٢٨-٢٩).

سَوَّار والمنصور

كان أبو جعفر المنصور قد عرف سَوَّارَ بن عبد الله العَنبريَّ قبل أن يولِّيَه القضاء.

وذلك أنَّ المنصورَ هَمَّ أن يغلق نَهْرَ ابن عمر، فوفَد إليه وفدٌ من أهل البصرة فيهم سَوَّار بن عبد الله وداودُ بن أبي هند وسعيدُ بن أبي عَروبة فكلَّموه، فقال سوَّار: يا أمير المؤمنين، إن أردتَّ أن تقتل مئة ألف من النَّاس عطشًا فأغلِقه، ويا أمير المؤمنين، إنِّي أحذِّرُك أهلَ البصرة!

فقال: يا سوَّار، أتخوِّفني بأهلِ البصرة؟ والله لهمَمتُ أن أوجِّه إليهم بقائد يَجثُم على أكبادهم حتى يأتيَ على آخرهم!

قال: يا أمير المؤمنين، لم أذهب حيثُ ذهبتَ، ولكن خوفتُك دعوةَ اليتيم والأرملةِ ومَن لا حيلةَ له.

فأحسنَ الرُّجوع، وأضرَب عمَّا كان عزم عليه.

وقال: اكتُبوا عهد الأحمر على القضاء.

وروى شيخ من تميم يُقال له: يحيى، قال: دخل سوَّار على المنصور: فقال السَّلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، قال: وعليك السَّلام ورحمة الله، ادنُ أبا عبد الله.

فقال: يا أمير المؤمنين، أدنو على ما مضى عليه النَّاسُ أو ما أحدَثوا؟ قال: بل على ما مضى عليه الناس، فدنا فصافحه، ثم جلس، فقال: أبا عبد الله، قد عزمتُ على أنْ أدعوَ أهل البصرة بسجِلَّاتهم وأُسْرَتهم، فأنظُرَ فيها.

فقال: يا أميرَ المؤمنين، أناشِدُك اللهَ أن تَعرَّضَ لأهل البصرة، فقال: أيا سوَّار، أبِأهل البصرة تُهدِّدني؟ والله، لهممتُ أن أوجِّه إليهم من يأخُذ بأفواه سِككهم وطرُقهم، ثم يضع فيهم السَّيف حتى يُفنيَهم.

فقال: يا أمير المؤمنين، ذهبتَ إلى غير ما ذهبتُ إليه، إنَّما كرهتُ أن تَعرِض للأرملة واليتيم والشَّيخ الفاني والحدَث الضَّعيف، فقال: يا أبا عبد الله، أنا للأرملة بَعْلٌ، ولليتيم أبٌ، وللشيخ أخٌ، وللضعيف عمٌّ، وإنَّما أريد أن أنظرَ في سجلَّاتهم وأُسْرَتهم ليُستَخْرَج ما في أيدي

الأغنياء ممَّا أخذوه بقوَّتهم وجاههم من حقوق الضُّعفاء والفقراء، فقال: وفَّقك الله لما يُحبُّ يا أمير المؤمنين، وأرشدَك لما يَرضى[١].

قال بِشر بن المفضَّل: حدَّث سوَّارُ بنُ عبد الله، قال: ما تركتُ في نفسي شيئًا إلَّا كلَّمتُ به أبا جعفر، قال: قلتُ: يا أمير المؤمنين، إنَّ الحسنَ كان يقول: إنَّ تصديقَ القولِ العملُ، فمَن صدَّق عملُه قولَه فذاك، ومن لا فقَد هلَك، أو كما قال الحسن، فقال أبو جعفر: صدَق[٢].

(١) "أخبار القضاة" (٢/ ٦١).
(٢) "أخبار القضاة" (٢/ ٦٢).

الإمام الأوزاعيُّ وعبد الله بن علي

لمَّا قدم عبد الله بن عليٍّ العبَّاسيُّ الشَّامَ - وقد قتَل مَن قتل من بني أميَّة بعد ذَهاب دولتهم - استدعى الإمام الأوزاعيَّ عبدَ الرَّحمن بن عمرو، والعباسيُّ في جنده وحشَمه، وقال للأوزاعيِّ: ما تقول في دماء بني أميَّة؟

قال الأوزاعي: قد كانت بينك وبينهم عهودٌ، وكان ينبغي أن تفيَ بها.

قال الأمير: ويحَك! اجعلني وإيَّاهم لا عهدَ بيننا، قال الأوزاعيُّ: فأجهشَت نفسي، وكرهتُ القتل، وتذكَّرتُ مَقامي بين يدَي الله، فلَفَظتُها، فقلتُ: دماؤهم عليك حرام.

فغضب عبدُ الله بن عليٍّ وانتفخَت أوداجُه وعيناه، فقال: ويحَك! ولِمَ؟! قلتُ: قال رسول الله ﷺ: «لا يَحِلُّ دم امرئ مسلم إلَّا بإحدى ثلاث: ثيِّبٌ زانٍ، ونفسٌ بنَفس، وتاركٌ لدينه».

قال: ويْحَك أليس الأمر لنا دِيانة؟

قال: كيف ذلك؟

قال: أوَليس كان رسول الله ﷺ أوصى لعَليٍّ؟

قلت: لو أوصى لعليٍّ ما حَكَّم الحَكَمَين!

فسكت، وقد اجتمع غضبُه، فجعلتُ أتوقَّع رأسي يسقط بين يديه، فأشار بيده هكذا، وأومأ أن أخرِجوه، فخرَجت.

وروى أبو نُعيم في "الحِلية"[1] عن الأوزاعيِّ، قال: سألَني عبد الله بن عليٍّ - والمسوِّدة قيامٌ على رُؤوسنا بالكافِر كُوبات - فقال: أليس الخلافة وصيَّة لنا من رسول الله ﷺ، قاتلَ عليها عليٌّ بصِفِّين؟

قال: قلت: لو كانت وصيَّة من رسول الله ﷺ ما حَكَّم عليٌّ الحَكَمَين، قال: فنكَّس رأسَه.

(١) (٦/ ١٤١).

الأوزاعيُّ والمنصور

قال الأوزاعيُّ للمنصور في بعض كلامه:

يا أميرَ المؤمنين، أمَا علمتَ أنه كان بيد رسول الله ﷺ جريدةٌ يابسة يَستاك بها، ويردَع بها المنافقين، فأتاه جبريلُ عليه السلام فقال: يا محمد، ما هذه الجريدة بيدك؟ اقذفها لا تملأ قلوبَهم رعبًا؟! فكيف من سَفَكَ دماء المسلمين، وشقَّقَ أستارهم، وانتهب أموالهم؟!

إنَّ المغفورَ له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر، دعا إلى القِصاص من نفسه بخَدْشَةٍ خدَشَها أعرابيًّا من غير تعمُّد، فقال له جبريلُ عليه السلام: إنَّ الله لم يبعَثْك جبَّارًا تكسر قرونَ رعيَّتك!

يا أميرَ المؤمنين، لو أنَّ ثوبًا من النَّار نُشر على ما في الأرض لاجتثَّه، فكيف بمن يتقمَّصه؟!

ولو أنَّ ذَنُوبًا من النَّار صُبَّ على ما في الأرض لاجتثَّه، فكيف بمن يتجرَّعه؟! ولو أنَّ حَلْقةً من سلاسل جهنَّم وُضعت على جبَل لذاب، فكيف بمن يُسلسَل فيها

ويردُّ فضلها على عُنقِه؟![1]

(١) "سراج الملوك".

الأوزاعيُّ ينصح المنصور

قال الأوزاعيُّ: بعث إليَّ أبو جعفر أمير المؤمنين، وأنا بالسَّاحل فأتيتُه، فلمَّا وصلتُ إليه وسلَّمتُ عليه بالخلافة، ردَّ عليَّ، واستجلسَني، ثم قال: ما الذي أبطأ بك عنَّا يا أوزاعيُّ؟ قلتُ: وما الذي تريد يا أمير المؤمنين؟ قال: أريد الأخذَ عنكم والاقتباس منكم، قلت: يا أمير المؤمنين، انظر ولا تجهل شيئًا ممَّا أقول لك، قال: وكيف أجهلُه وأنا أسألك عنه، وقد وجَّهتُ إليك فيه، وأقدمتُك له؟! قلتُ: إنْ تسمَعْه ولا تعمَلْ به!

قال: فصاح بي الرَّبيع وأهوى بيده إلى السَّيف، فانتهرَه المنصورُ وقال: هذا مجلسُ مَثوبة لا عقوبة، فطابت نفسي وانبسطتُ في الكلام، فقلت: يا أمير المؤمنين، حدَّثني مكحولٌ عن عطيَّة - يعني ابن بُسْر - قال: قال رسولُ الله ﷺ: «أيُّما عبدٍ جاءته موعظةٌ من الله في دينه، فإنَّها نعمة من الله سبقَت إليه، فإنْ قَبِلَها بشُكر، وإلَّا كانت حجَّةً عليه من الله؛ ليزداد بها إثمًا، ويزدادَ الله

بها عليه سخطًا».

يا أمير المؤمنين، حدَّثني مكحولٌ عن عطيَّة بن بُسْر قال: قال رسول الله ﷺ: «أيُّما والٍ بات غاشًّا لرعيَّته، حرَّم الله عليه الجنة».

يا أمير المؤمنين، من كَرِهَ الحقَّ، فقد كره الله؛ إنَّ الله هو الحقُّ المبين.

يا أمير المؤمنين، إنَّ الذي يُلين قلوبَ أمَّتِكم لكم حين ولَّاكم أمرَهم لَقَرابتُكم من النبيِّ ﷺ؛ فقد كان بهم رَؤوفًا رحيمًا، مُواسيًا بنفسه لهم في ذات يده، وعند النَّاس فحقيقٌ أن يقومَ له فيهم بالحق، وأن يكون بالقسط له فيهم قائمًا، ولعَوْراتهم ساترًا، لم تُغلَق عليه دونَهم الأبواب، ولم يَقُم عليه دونَهم الحجَّاب، يبتهج بالنِّعمة عندهم، ويبتئس بما أصابهم من سوء.

يا أمير المؤمنين، قد كنتَ في شغل شاغل من خاصَّة نفسك عن عامَّة الناس الذين أصبحتَ تَملكهم أحمرَهم وأسوَدَهم، ومُسلِمَهم وكافرَهم، فكلٌّ له عليك نصيبُه من العدل، فكيف إذا اتَّبعك منهم فِئامٌ وراءَهم فئام، ليس منهم أحد إلَّا وهو يشكو بليَّةً أدخلتَها عليه أو ظُلامةً سُقتَها

إليه؟!

يا أمير المؤمنين، حدَّثني مكحولٌ عن عُروةَ بنِ رُوَيم، قال: كانت بيدِ النبيِّ ﷺ جريدةٌ يَستاك بها ويُروِّع بها المنافقين، فأتاه جبريلُ عليه السلام فقال: يا محمَّد، ما هذه الجريدة التي كسَرتَ بها قُرونَ أُمَّتِك، وملأتَ قلوبهم رُعبًا؟!

فكيف بمن شَقَّق أبشارَهم، وسَفَك دماءهم، وخَرَّب ديارَهم، وأجلاهم عن بلادهم، وغيَّبَهم الخوفُ منه؟!

يا أمير المؤمنين، حدَّثني مكحولٌ عن زياد بن جارية عن حبيب بن مَسلمة أنَّ رسول الله ﷺ دعا إلى القِصاص من نفسه في خَدْشَةٍ خَدَش بها أعرابيًّا لم يتعمَّدْها؛ فأتاه جبريلُ، فقال: يا محمد، إنَّ الله لم يبعَثك جبَّارًا ولا مستكبرًا، فدعا النبيُّ ﷺ الأعرابيَّ، فقال: «اقتصَّ منِّي»، فقال الأعرابيُّ: قد أحللتُك بأبي أنت وأمِّي، ما كنتُ لأفعل ذلك أبدًا، ولو أتيتَ على نفسي، فدعا له بخير.

يا أمير المؤمنين، رُضْ نفسَك لنفسك، وخُذ لها الأمانَ من ربِّك، وارغَب في جنَّة عرضُها السَّموات والأرض التي يقول فيها رسولُ الله ﷺ: «لَقابُ قَوسٍ

أحدكم في الجنَّة خيرٌ له من الدُّنيا وما فيها».

يا أمير المؤمنين، تدري ما جاء في تأويل هذه الآية عن جدِّك: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف: ٤٩]، قال: الصَّغيرة التَّبسُّم، والكبيرة الضَّحك، فكيف بما عمِلَته الأيدي وحدَّثته الألسُن؟! يا أميرَ المؤمنين، بَلَغَني عن عمر بن الخطَّاب - رضي الله تعالى عنه - أنَّه قال: لو ماتت سَخْلَةٌ على شاطئ الفُرات ضَيعةً، لخِفتُ أن أُسْأَل عنها، فكيف بمن حُرِم عدلَك وهو على بِساطك؟

يا أمير المؤمنين، أتدري ما جاء في تأويل هذه الآية عن جدِّك: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [ص: ٢٦]؟ قال: يا داود، إذا قعَد الخَصمان بين يديك، فكان لك في أحدِهما هوًى، فلا تَمنَّينَّ في نفسك أن يكون له الحقُّ، فيفلُجَ على صاحبه؛ فأمحوَك من نُبوَّتي، ثم لا تكون خليفتي، ولا كرامة!

يا داود، إنَّما جعلتُ رسلي إلى عبادي كرِعاء الإبل؛ لعِلمهم بالرِّعاية، ورفقهم بالسِّياسة؛ ليَجبُروا الكَسير، ويَدُلُّوا الهَزيل على الكلأ والماء.

يا أمير المؤمنين، إنَّك قد بُليتَ بأمر عظيم لو عُرض على السَّموات والأرض والجبال، لأبَيْن أن يحمِلنَه وأشفَقنَ منه.

يا أمير المؤمنين، حدَّثني يَزيدُ بن مَزْيَد عن جابرٍ عن عبد الرَّحمن بن أبي عَمرة الأنصاريِّ أنَّ عمر بن الخطَّاب استعمل من الأنصار رجلًا على الصَّدقة، فرآه بعد أيام مُقيمًا، فقال له: ما منَعك من الخروج إلى عمَلِك؟ أَمَا علمتَ أنَّ لك مثلَ أجر المجاهدين في سبيل الله؟ قال: لا، قال عُمر: وكيف ذاك؟!

قال: لأنَّه بلَغني أنَّ رسول الله ﷺ قال: «ما من والٍ يلي من أمور النَّاس شيئًا إلَّا أُتِي به يومَ القيامة، فيُوقَف على جِسر من نار، فيَنتفِض به الجسرُ انتفاضًا يُزيل كلَّ عضو منه عن موضعه ثم يُعاد، فيُحاسَب، فإن كان مُحسِنًا نَجا بإحسانه، وإن كان مسيئًا انخرق به ذلك الجسر، فهوى به في النَّار سبعين خريفًا».

فقال له عمر: ممَّن سمعتَ هذا؟ قال: من أبي ذرٍّ وسَلمان، فأرسلَ إليهما عُمر، فسألهما فقالا: نعم، سمعناه من رسول الله ﷺ فقال عمر: واعُمَرَاه! من

يتولَّاها بما فيها؟ فقال أبو ذرٍّ: من سَلَتَ اللهُ أنفَه، وألصقَ خدَّه بالأرض.

فأخذ أبو جعفر المنديل، فوضعه على وجهه، فبكى وانتحب حتَّى أبكاني، فقلتُ: يا أمير المؤمنين، قد سأل جدُّك العبَّاسُ النبيَّ ﷺ إمارةً على مكَّة والطَّائف، فقال له: «يا عبَّاسُ، يا عمَّ النبيِّ، نفسٌ تُحييها خيرٌ من إمارة لا تُحصيها».

هي نصيحة منه لعمِّه وشفقة منه عليه؛ لأنَّه لا يُغني عنه من الله شيئًا، أوحى الله تعالى إليه: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: ٢١٤]، فقال: «يا عبَّاس، يا صفيَّة عمَّة النبي، إنِّي لستُ أُغني عنكم من الله شيئًا، ألَا لي عمَلي ولكم عمَلُكم».

وقد قال عمرُ رضي الله تعالى عنه: لا يُقيم أمرَ النَّاس إلَّا حَصِيفُ العقل، أريبُ العُقدَة، لا يُطَّلع منه على عورة، ولا يَحنو على حَوْبة، ولا تأخذُه في الله لومةُ لائم.

وقال: السُّلطان أربعة أمراء؛ فأمير قويٌّ ظَلَفَ نفسَه وعُمَّالَه، فذاك المجاهد في سبيل الله، يد الله باسطة عليه بالرَّحمة، وأمير ضعيف ظَلَفَ نفسَه وأرتَع عمَّالَه، فضَعُف،

فهو على شفا هلاك إلَّا أن يرحمه الله، وأمير ظلَفَ عمَّالَه وأرتَع نفسه، فذلك الحُطَمة الذي قال رسول الله ﷺ: «شرُّ الرِّعاءِ الحُطَمة»، وأميرٌ أرتَعَ نفسَه وعُمَّاله، فهلَكوا جميعًا.

وقد بلغَني - يا أمير المؤمنين - أنَّ جبريل عليه السلام أتى النبي ﷺ فقال: أتيتُك حين أمر الله ﷻ بمنافيخ النَّار، فوُضِعَت على النَّار تُسعَّر ليوم القيامة، فقال له: «يا جبريل، صِف لي النَّار»، فقال: إنَّ الله أمرَ بها، فأوقدَ عليها ألفَ عام حتى احمرَّت، ثم أوقدَ عليها ألف عام حتى اصفرَّت، ثم أوقدَ عليها ألف عام حتى اسودَّت، فهي سوداءُ مُظلِمة لا يضيء لهبُها ولا جمرُها!

والذي بعثك بالحقِّ، لو أنَّ ثوبًا من ثياب أهل النار أُظهِرَ لأهل الأرض لماتوا جميعًا، ولو أنَّ ذَنوبًا من شرابها صُبَّ في ماء الأرض لقَتل من ذاقه، ولو أنَّ ذراعًا من السِّلسلة التي ذكَر الله تعالى وُضِع على جبال الأرض جميعًا، لذابت وما استقرَّت، ولو أنَّ رجلًا دخل النَّار، ثم أُخرج منها، لمات أهلُ الأرض من نَتْن ريحه وتشويه خَلقِه وعظمه.

فبكى النبيُّ ﷺ وبكى جبريلُ لبكائه، فقال: أتبكي

يا محمَّد، وقد غفَر الله لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخَّر؟ قال: أفلا أكون عبدًا شَكورًا؟ ولم بكيتَ يا جبريل وأنت الرُّوح الأمين، أمينُ الله على وحيه؟ قال: أخاف أن أُبتَلى بما ابتُلي به هاروتُ وماروت، فهو الذي منعَني من اتِّكالي على منزلتي عند ربِّي، فأكون قد أمِنتُ مَكرَه.

فلم يزالا يَبكِيان حتَّى نُودِيا من السَّماء: أنْ يا جبريل ويا محمَّد، إنَّ الله تعالى قد أمَّنَكما أن تعصياه فيعذِّبكما، ففَضلُ محمَّد على الأنبياء كفَضلِ جبريلَ على ملائكة السَّماء كلِّهم».

وقد بلَغني يا أمير المؤمنين أنَّ عمر بن الخطَّاب قال: اللهمَّ إن كنت تعلم أنِّي أبالي إذا قعد الخَصمان بين يديَّ على مَن قال الحقَّ من قريب أو بعيد، فلا تُمهلني طَرْفَةَ عين.

يا أمير المؤمنين، إنَّ أشدَّ الشِّدة القيامُ لله بحقِّه، وإنَّ أكرم الكرم عند الله التَّقوى، إنَّه مَن طلَب العزَّ بطاعة الله، رفعَه الله، ومن طلبه بمعصية الله، أذلَّه الله ووضَعه، هذه نصيحتي والسَّلام عليك.

ثم نهضتُ، فقال لي: إلى أين؟ فقلتُ: إلى البلد

والوطن بإذن أميرِ المؤمنين إن شاء الله، فقال: قد أذنتُ وشكرتُ لك نصيحتَك وقبلتُها بقَبول، والله الموفِّق للخير والمُعين عليه، وبه أستعينُ وعليه أتوكَّل، وهو حسبي ونعم الوكيل، فلا تُخلني من مُطالعتِك إيَّاي بمثلها؛ فإنَّك المقبولُ غير المتَّهم في النَّصيحة، قلتُ: أفعل إن شاء الله.

قال محمَّدُ بن مُصعب: فأمر بمال يستعين به على خروجه فلم يَقبَله، وقال: أنا في غنًى عنه، وما كنتُ لأبيع نصيحتي بعَرَضِ الدُّنيا كلِّها، وعرَف المنصورُ مذهبَه، فلم يجِدْ عليه في ردِّه[1].

(١) "الحلية" لأبي نعيم (٦/ ١٣٦-١٤٠).

الأوزاعيُّ يحثُّ المنصور على إنقاذ الأسرى المسلمين

حدَّث أبو سعيد الثَّعلبي، قال: لمَّا خرج إبراهيمُ ومحمَّدٌ على أبي جعفرٍ المنصور، أراد أهلَ الثُّغور أنْ يُعينوه عليهما، فأَبَوا ذلك، فوقع في يد ملك الرُّوم الألوف من المسلمين أسرى - وكان ملك الرُّوم يُحبُّ أن يُفاديَ بهم، ويأبى أبو جعفر - فكتب الأوزاعيُّ إلى أبي جعفر كتابًا:

أمَّا بعد؛ فإنَّ اللهَ تعالى استرعاك أمرَ هذه الأمَّة؛ لتكون فيها بالقسط قائمًا، وبنبيِّه ﷺ في خفض الجَناح والرَّأفة متشبِّهًا، وأسأل الله تعالى أن يُسكِّنَ على أمير المؤمنين دَهماءَ هذه الأمَّة، ويَرزُقَه رحمتَها؛ فإنَّ سايحةَ المشركين غلبَت عامَ أَوَّلَ، ومَوطِئَهُمْ حريمَ المسلمين، واستِنْزالهم العواتقَ والذَّراريَّ من المعاقل والحصون، وكان ذلك بذُنوب العباد، وما عفا الله عنه أكثر.

فبذنوب العباد استُنْزلت العواتقُ والذَّراريُّ من المعاقل والحصون، لا يَلقَون لهم ناصرًا ولا عنهم مُدافعًا، كاشفات عن رُؤوسهنَّ وأقدامهن، فكان ذلك بمرأًى

ومسمع، وحيث ينظر الله إلى خلقه وإعراضهم عنه.

فليَتَّقِ اللهَ أميرُ المؤمنين، وليبتغِ بالمُفاداة بهم من الله سبيلًا، وليخرج من محجَّة الله تعالى، فإنَّ الله تعالى قال لنبيِّه: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾﴾ [النساء: ٩٨]، والله يا أمير المؤمنين، ما لهم يومئذ فَيءٌ مَوقوف ولا ذمَّة تؤدِّي خراجًا إلَّا خاصَّة أموالهم.

وقد بلغَني عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنِّي لأسمعُ بكاءَ الصَّبيِّ خلفي في الصَّلاة فأتجوَّزُ فيها؛ مخافةَ أن تفتَتِنَ أمُّه».

فكيف بتخليتهم - يا أمير المؤمنين - في أيدي عدوِّهم يَمتهنونهم ويتكشَّفون منهم ما لا نستحلُّه نحن إلَّا بنِكاح؟! وأنت راعي الله، والله تعالى فوقَك، ومستوفٍ منك يومَ توضع مَوازينُ القسط ليوم القيامة؛ ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧][(١)].

(١) "حلية الأولياء" (٦/ ١٣٥-١٣٦).

ابن طاوس والمنصور

روى زيادٌ عن مالكِ بن أنس قال: بعث أبو جعفرٍ إليَّ وإلى ابن طاوس، فدخَلنا عليه، فإذا هو جالسٌ على فُرُش قد نُضِّدَت، وبين يديه أنطاعٌ قد بُسِطَت[١]، وبين يديه جَلاوِزَة[٢] بأيديهم السُّيوف يضربون الأعناق، وأومأ إلينا أنِ اجلسا، فجلَسنا، فأطرَق عنَّا طويلًا ثم رفع رأسه، والتفتَ إلى ابن طاوسٍ وقال: حدِّثنا عن أبيك، قال: نعم، إنِّي سمعتُ أبي يقول: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ أشدَّ الناس عذابًا يوم القيامة مَن أشرَكه الله في مُلكِه فأدخَل عليه الجَورَ في حُكمِه».

فأمسك أبو جعفر ساعةً، قال مالكٌ: فضمَمتُ ثيابي مخافةَ أن ينضَحني بدمه، فأمسك أبو جعفر ساعةً حتى اسودَّ ما بيننا وبينه ثم قال: يا ابن طاوس، ناوِلْني هذه الدَّواة، فأمسك عنه ثم قال: ما يمنعُك أن تُناوِلَنيها؟ قال:

---

(١) الأنطاع جمع نِطَع؛ وهو جلد يُبسَط عليه رمادٌ كثير، تُقطَع فوقه الأعناق.

(٢) الجَلاوِزَة هم: جندٌ لقتل من وجَب عليه القتل، بمنْزِلة السيَّاف الآن.

أخشى أن تكتب بها معصيةً فأكون شريكَك فيها، فلمَّا سمع ذلك قال: قُومَا عنِّي، قال ابن طاوس: ذلك ما كنَّا نبغي منذ اليوم، قال مالك: فما زلتُ أعرف لابن طاوسٍ فضلَه من ذلك اليوم[1].

(١) "سراج الملوك".

سفيان الثَّوري يُبكي المنصور

ذكَروا أنَّه لما كان أبو جعفر بمنًى في العام الذي حجَّ فيه سفيان الثَّوري وسليمان الخوَّاص قال أحدُهما لصاحبه: ألا ندخل على هذا الطَّاغي الذي كان يُزاحِمُنا بالأمس في مَجالس العلم عند منصور والزُّهري، فنكلِّمه ونأمره بحقٍّ وننهاه عن باطل؛ فلعلَّ أن يقع كلامُنا منه موقعًا ينفَع الله به المسلمين ويأجُرنا عليه! فقال سليمان الخوَّاص: إني لأخشى أن يأتي علينا منه يومُ سَوء، فقال الثَّوريُّ: ما أخاف ذلك فإن شئتَ فادخل وإن شئتَ دخلتُ.

فدخل سليمان الخوَّاص، فأمره ونهاه ووعَظه، وذكَّره الله وما هو صائرٌ إليه ومسؤولٌ عنه، فقال له أبو جعفر: أنت مقتول، ما تقول في كذا وكذا؟ لشيءٍ سأله عنه من باب العلم، فأجابه، فلمَّا خرج قال سفيان الثوريُّ: ماذا صنعتَ؟ قال: أمرتُ ونهيتُ، ووعَظتُ وذكَّرتُ؛ فرضًا كان في رقابنا أدَّيناه مع أنَّه لا يقبَل، وسألني عن مسألةٍ فأجبتُه، قال سفيانُ: ما صنعتَ شيئًا.

فدخل سفيان الثوريُّ فأمره ونهاه، فقال له: هاهنا أبا عبد الله، إليَّ إليَّ، ادنُ منِّي، فقال: إنِّي لا أطأ ما لا أملك ولا تملِك، فقال أبو جعفر: يا غلام، أدرج البِساط وارفع الوطاء، فتقدَّم سفيانُ فصار بين يديه، وقعد ليس بينه وبين الأرض شيء وهو يقول: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [طه: ٥٥]، فدَمِعَت عينا أبي جعفر، ثم تكلَّم سفيانُ دون أن يستأذن، فوعَظ وأمر ونهى وذكَّر، وأغلظَ في قوله، فقال له الحاجب: أيُّها الرَّجل أنت مقتول.

قال سفيان: وإن كنتُ مقتولًا فالسَّاعة، فسأله أبو جعفر عن مسألة فأجابه.

ثم قال سفيان: فما تقول أنت يا أميرُ فيما أنفقتَ من مال الله ومال أمَّة محمَّد بغير إذنهم، وقد قال عُمر في حجَّة حجَّها وقد أنفق ستَّة عشر دينارًا هو ومَن معه: ما أرانا إلَّا وقد أجحَفنا ببيت المال؟!

وقد علمتَ ما حدَّثَنا به منصورُ بن عمَّار - وأنت حاضرٌ ذلك، وأوَّل كاتبٍ كتبَه في المجلس - عن إبراهيم، عن الأسوَد، عن عَلقمةَ، عن ابنِ مسعودٍ أنَّ

رسول الله ﷺ قال: «رُبَّ مُتخوِّضٍ في مال الله ومال رسول الله فيما شاءت نفسُه، له النَّار غدًا»، فقال أبو عبيدةَ الكاتبُ: أميرُ المؤمنين يُستقبَل بمثل هذا؟! فقال له سفيانُ: اسكُت؛ فإنَّما أهلك فرعونُ هامانَ وهامانُ فرعونَ!

ثمَّ خرَج سفيانُ، فقال أبو عبيدةَ الكاتبُ: ألا تأمر بقتل هذا الرَّجل؛ فوالله ما أعلم أحدًا أحقَّ بالقتل منه؟ فقال أبو جعفر: اسكت يا أنْوَك! فوالله ما بقيَ على الأرض أحدٌ اليوم يُستحَى منه غيرَ هذا ومالكِ بنِ أنَس.

خطابٌ وجوابُه بين عُبيد الله بن عمر والمنصور

لمَّا قفَل المنصور من حجِّه في سنة ١٤٨هـ سأل عن عبيد الله بن عمر بن حفص بن عبد الله بن عمر بن الخطَّاب، وهو الفقيه المعروف بالعُمَري، فقيل له: إنَّه لم يحجَّ هذا العام يا أمير المؤمنين، ولو حجَّ لكان أوَّلَ داخلٍ عليك، فلا تقبل عليه أحدًا ولا يقدَح فيه عندك إلَّا باطليٌّ أو كذَّاب؛ فإنَّه مَن عَلِمت.

فقال أبو جعفر: والله ما تخلَّف عن الحجِّ في عامه هذا إلَّا علمًا منه بأنِّي حاجٌّ؛ فلذلك تخلَّف، ولا والله ما زاده ذلك عندي إلَّا شرَفًا ورِفعة، وإنِّي من التَّوقير له والإجلال بحال لا إخال أحدًا من النَّاس بذلك؛ لشرفه في قريش وعظيم مَنزلتِه من هذا الأمر، والموضع الذي جعلَه الله فيه، والمكانِ الذي أنزلَه به.

فلمَّا قدِم أبو جعفر بغداد وردَ عليه كتابُ عبيد الله العُمري فيه: «بسم الله الرَّحمن الرَّحيم، لعبد الله أبي جعفر أمير المؤمنين من عُبيد الله بن عمر، سلام الله عليك ورحمة الله التي اتَّسَعت فوسِعَت مَن شاء.

أمَّا بعدُ، فإنِّي عهدتُّك وأمرُ نفسِك لك مهم، وقد أصبحتَ وقد وُلِّيتَ أمر هذه الأمَّة أحمرِها وأسوَدِها وأبيضِها، وشريفِها ووَضيعِها، يجلسُ بين يديك العدوُّ والصَّديق، والشَّريف والوضيع، ولكلٍّ حصَّتُه من العدل ونصيبُه من الحقِّ، فانظر كيف أنت عند الله يا أبا جعفر.

وإنِّي أحذِّرُك يومًا تَفنَى فيه الوجوهُ والقلوب، وتنقطع فيه الحُجَّة لملِكٍ قد قهَرهم بجبروته وأذلَّهم بسُلطانه، والخلقُ داخرون له يَرجون رحمتَه ويخافون عذابَه وعقابَه، وإنَّا كنَّا نتحدَّث أنَّ أمر هذه الأمَّة سيَرجع في آخر زمانها أن يكون إخوانُ العلانية أعداءَ السَّريرة، وإنِّي أعوذ بالله أن تُنْزل كتابي سوء المنزل؛ فإنِّي إنَّما كتبتُ به نصيحة، والسَّلام».

فكتب إليه أبو جعفر الجوابَ الآتي:

«من عبد الله بن محمَّد أمير المؤمنين إلى عُبيد الله بن عمر بن حفص، سلامٌ عليك.

أمَّا بعد، فإنَّك كتبتَ إليَّ تَذكُر أنَّك عهِدتَّني وأمرُ نفسي لي مهم، فأصبحتُ وقد وُلِّيتُ أمرَ هذه الأمَّة بأسرها، وكتبتَ تَذكُر أنَّه بلَغَك أنَّ أمر هذه الأمَّة سيَرجع

في آخر زمانها أن يكون إخوانُ العلانية أعداءَ السَّريرة، ولستَ - إن شاء الله - من أولئك، وليس هذا زمانَ ذلك، إنَّما ذلك زمانٌ تَظهر فيه الرَّغبة، والرَّغبة تكون رغبةَ بعض النَّاس إلى بعض، صلاح دنياهم أحبُّ إليهم من صلاح دينهم.

وكتبتَ تحذِّرني ما حُذِّرَت به الأممُ من قبلي، وقديمًا كان يُقال: اختلاف اللَّيل والنَّهار يقرِّبان كلَّ بعيد، ويُبلِيان كلَّ جديد، ويأتيان بكلِّ موعود، حتى يَصيرَ الناس إلى منازلهم من الجنَّة والنَّار.

وكنتَ تتعوَّذ بالله أن نُنزل كتابك سوء المَنزل، وأنَّك إنَّما كتبتَ به نصيحة، فصدَقتَ وبرَرتَ فلا تدَعِ الكتبَ إليَّ؛ فإنه لا غِنَى بي عن ذلك، والسَّلام»[1].

(١) انظر: كتاب "الإمامة والسِّياسة" لابن قتيبة. الصحيح أنَّ هذا الكتاب ليس لابن قتيبة؛ انظر: "كتب حذَّر منها العلماء" لمشهور بن حسن (٢/٢٩٨). [الألوكة].

ضرب الإمام مالك بن أنس

في ابتداء خلافة أبي جعفر المنصور حصَلَت فتنةٌ في المدينة، فبعَث إليها ابنَ عمِّه جعفرَ بن سليمان بن العبَّاس؛ ليُسكِّن هيجتَها ويجدِّد بيعةَ أهلها، فقَدِمها وهو عازمٌ على أخذ المخالفين بالشدَّة، وكان الإمام مالكُ بن أنس قد بلَغ من العلم والوجاهة والنُّبل ما أثار حفيظةَ ذوي الحسد وسعيهم للنَّيل منه.

فدسُّوا إلى جعفر بن سليمان مَن قال له: إنَّ مالكًا يفتي النَّاس بأنَّ أيمان البيعة لا تحِلُّ ولا تَلزَمُهم؛ لمخالفتك واستكراهك إيَّاهم عليها، وزعَموا أنَّه يُفتي بذلك أهلَ المدينة أجمعين؛ لحديثٍ رواه عن النبيِّ ﷺ قال: «رُفِع عن أمَّتي الخطأ والنِّسيان وما استُكرِهوا عليه».

فعظُم ذلك على جعفر واشتدَّ عليه، وخاف أن ينحلَّ عليه ما أبرَم من بيعة أهل المدينة، فأراد أن يَبطِش به، فحذَّره بعضُ النَّاس من ذلك؛ نظرًا لمنزلة مالك عند أمير المؤمنين وكرامته عنده.

فدسَّ إليه جعفرٌ بعض مَن لم يكن مالكٌ يَخشى أن يُؤتَى من قِبَلِه، فسأله عن الأيمان في البيعة فأفتاه مالكٌ بذلك، فلم يَشعُر مالكٌ إلَّا ورسولُ جعفرِ بن سليمان قد جاءه لإحضاره لدى جعفر، فأتَوا به إليه بعد إهانته، فأمَر به فضُرِب سبعين سَوطًا سبَّبَت له آلامًا بليغة، حتَّى صار لا يَقوى على رفع يديه في الصَّلاة، ويُسدِلها.

ولمَّا علم أبو جعفر بذلك أبدى استنكاره وعزَل جعفرَ ابن سليمان، وأمَر أن يُؤتَى به إلى بغداد على قَتَب، وولَّى مكانه رجلًا من قريش من بني مَخزُوم، فيه عقلٌ ودِين، وحَزم وذكاء.

وكتب أبو جعفر إلى مالكِ بن أنس؛ لِيَقدَم عليه في بغداد، فاعتذر مالكٌ من ذلك، فكتب إليه أبو جعفر أن وافِني بالمَوسِم القابل إن شاء الله؛ فإنِّي خارجٌ إلى المَوسم.

وفي سنة ثلاث وستِّين ومئة التقى مالكٌ بأبي جعفر، فأكرمَه إكرامًا شديدًا وأجلسَه إلى جانبه ملاصقًا له، واعتذر له عمَّا فعل به جعفرُ بن سليمان، وأقسم بالله أنَّه لم يأمر بذلك ولا رضِيَه، وأنَّه منذ أن بلَغَه ما صنَعه جعفرٌ

عزَلَه وأهانه، وسيُعاقبه أضعافَ ما نال مالكًا منه.

وقال أبو جعفر لمالك: يا أبا عبد الله، لا يزال أهلُ الحرَمين بخير ما كنتَ بين أظهُرهم، ولقد دفع الله بك عنهم وقعةً عظيمة، وقال مالكٌ: إنَّه قد عفا عن جعفر؛ لقرابته من رسول الله ﷺ ومن أمير المؤمنين، فقال أبو جعفر: وأنت فعفا الله عنك ووصَلَك، وطلب منه أن يكتُبَ كتابًا يُدوِّن فيه العلم قصدًا بين شدائد عبد الله بن عمر ورُخَص ابن عبَّاس، ولْيتَحرَّى ما اجتمع عليه الأئمَّة والصَّحابة؛ لِيَحمل النَّاس عليها ويبُثَّها في الأمصار.

وتحدَّثا طويلًا، ثم استأذن مالكٌ في الانصراف فأمرَ له المنصورُ بألف دينار عينًا ذهبًا وكُسوة عظيمة، وأمرَ لابن الإمام مالكٍ بألف دينار(١).

(١) انظر: كتاب "الإمامة والسِّياسة" لابن قتيبة [سبق التنبيه على أنَّ الصحيح أنَّ هذا الكتاب ليس لابن قتيبة. الألوكة]، و"كتاب الأئمَّة الأربعة" لأحمد الشرباصي، و"البداية والنِّهاية".

مالك لا يريد إلزام النَّاس بـ"الموطَّأ"

وقال مالكُ بن أنس: لمَّا حجَّ أبو جعفر المنصورُ دعاني، فدخلتُ عليه فحدَّثتُه، وسألَني فأجبتُه، فقال: إني قد عزَمتُ أن آمُرَ بكتبك هذه التي وضعتَها - يعني: "الموطَّأ" - فتُنسَخَ نُسخًا، ثم أبعثَ إلى كلِّ مِصرٍ من أمصار المسلمين منها نسخةً، وآمُرَهم أن يَعمَلوا بما فيها لا يتعدَّوها إلى غيرها، ويدَعوا ما سوى ذلك من هذا العلم المُحدَث؛ فإنِّي رأيتُ أصل هذا العمل روايةَ أهل المدينة وعِلمَهم.

قال: فقلت: يا أمير المؤمنين، لا تفعل؛ فإنَّ النَّاس قد سَبقَت إليهم أقاويلُ وسَمِعوا أحاديثَ وروَوْا روايات، وأخَذ كلُّ قوم بما سبَق إليهم وعملوا به ودانوا به، من اختلاف النَّاس أصحاب رسول الله ﷺ، وإنَّ ردَّهم عمَّا اعتقَدوه شديد، فدَعِ النَّاس وما هم عليه وما اختار كلُّ بلد لأنفسهم، فقال: لعَمري لو طاوعَني على ذلك لأمَرتُ به.

وصيَّة مالكٍ للمهديِّ

وعَظ الإمام مالكٌ الخليفةَ المهديَّ حينما طلَب منه أن يوصِيَه فقال له: أوصيك بتقوى الله وحدَه، والعطف على أهل بلد رسول الله ﷺ وجيرانه؛ فإنَّه بلغَنا أنَّ رسول الله ﷺ قال: «المدينة مُهاجَري، وبها قبري وبها مبعَثي، وأهلُها جيراني، وحقيقٌ على أمَّتي حفظي في جيراني، فمَن حفِظَهم كنتُ له شهيدًا وشفيعًا يوم القيامة».

ووعَظ أحدَ الولاة فقال له: تفقَّد أمور الرعيَّة؛ فإنَّك مسؤول عنهم؛ فإنَّ عمر بن الخطَّاب قال: والذي نفسي بيده، لو هلَك جمَلٌ بشاطئ الفرات ضياعًا لظنَنتُ أنَّ الله يسألُني عنه يوم القيامة.

وأرسل إلى أحد الخُلفاء يوصيه فقال له: اعلم أنَّ الله تعالى قد خصَّك من موعظتي إيَّاك بما نصَحتُك به قديمًا، وأتيتُ لك فيه ما أرجو أن يكون الله تعالى جعلَه لك سعادة وأمرًا جعل سبيلك به إلى الجنَّة؛ فلتكن - رحِمَنا الله وإيَّاك - فيما كتبتُه إليك، مع القيام بأمر الرعيَّة وما

استرعاك الله من رعيَّته؛ فإنَّك المسؤول عنهم صغيرهم وكبيرهم، وقد قال النبيُّ ﷺ: «كلُّكم راعٍ وكلُّكم مسؤول عن رعيَّته».

ورُوي في بعض الحديث أنَّه يؤتى بالوالي ويدُه مغلولة إلى عنقه فلا يَفُكُّ عنه إلَّا العدل، وكان عمرُ بن الخطَّاب رضي الله عنه يقول: «والله إن هلكَت سَخْلَةٌ بشطِّ الفُرات ضياعًا لكنتُ أرى الله تعالى سائلًا عنها عُمر».

وحجَّ عمرُ عشْرَ سنين، وبلغَني أنَّه ما كان ينفق في حجِّه إلَّا اثنَي عشَرَ دينارًا، وكان ينزل في ظلِّ الشَّجرة، ويحمل على عنقه الدِّرَّة، ويدور في السُّوق يسأل عن أحوال مَن حضَرها ومَن غاب عنها، ولقد بلَغني أنَّه وقتَ أُصيب حضَر أصحابُ النبيِّ ﷺ فأثنَوا عليه فقال: «المغرورُ من غرَرتُموه، لو أنَّ ما على وجه الأرض ذهبٌ لافتديتُ به من أهوال المَطلَع!».

فعمر - رحمه الله تعالى - كان مسدَّدًا موفَّقًا مع ما قد شهد له النبيُّ ﷺ بالجنَّة، ثمَّ هو مع هذا خائفٌ لما تقلَّد من أمور المسلمين، فكيف بِمَن قد عَلِمتَ؟!

فعليك بما يقرِّبك إلى الله ويُنجيك منه غدًا، واحذر

يومًا لا ينجيك فيه إلَّا عمَلُك، ولْيَكن لك أسوةٌ بِمَن قد مضى من سلَفِك، وعليك بتقوى الله فقدِّمه حيث همَمتَ، وتطلَّعْ فيما كتبتُ به إليك في أوقاتك كلِّها، وخُذْ نفسَك بتعاهُدِه والأخذِ به والتأدُّب عليه، وأسأل الله التوفيق والرَّشاد إن شاء الله تعالى.

وكان مالكٌ مرَّة عند الحاكم، وقام أحد الحاضرين يُثني على الحاكم.

فقال مالكٌ: إيَّاك أن يغُرَّك هؤلاء بثنائهم عليك؛ فإنَّ مَن أثنى عليك وقال فيك من الخير ما ليس فيك أوشَك أن يقول فيك من الشَّر ما ليس فيك، فاتَّقِ الله في التَّزكية منك لنفسك، ولا ترضى بها من أحدٍ يقولها لك في وجهك؛ فإنَّك أنت أعرَفُ بنفسِك منهم؛ فإنَّه بلغَني أنَّ رجلًا مُدِح عند النبيِّ ﷺ فقال: «قطَعتُم ظهرَه - أو عُنقَه - لو سَمِعَها ما أفلَح»، وقال النبيُّ ﷺ: «احثُوا التُّراب في وجوه المدَّاحين».

عمرُو بن عُبيد

دخل عمرو بنُ عبيدٍ على المنصور، فأكرمَه وعظَّمَه وقرَّبه، وسأله عن أهله وعياله، ثم قال له: عِظني، فقرأ عليه سورة الفجر إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ [الفجر: ١٤]، فبكى المنصورُ بكاءً شديدًا حتَّى كأنه لم يسمَع بهذه الآيات من قبلِ ذلك!

ثم قال: زدني، فقال: إنَّ الله قد أعطاك الدُّنيا بأسرها فاشترِ نفسَك ببعضها، وإنَّ هذا الأمر كان لِمَن قبلك ثم صار إليك، ثمَّ هو صائرٌ لِمَن بعدَك، واذكر ليلةً تُسفِر عن يوم القيامة.

فبكى المنصورُ أشدَّ من بكائه الأوَّل حتى اختلفَت أجفانُه، فقال له سليمانُ بن مُجالد: رِفقًا بأمير المؤمنين، فقال عمرٌو: وماذا على أمير المؤمنين أن يبكِيَ من خشية الله ﷻ؟!

ثمَّ أمر له المنصورُ بعشرة آلاف درهم، فقال: لا حاجة لي فيها، فقال المنصور: والله لتأخُذنَّها، فقال:

والله لا أخذتُها.

فقال له المهديُّ وهو جالسٌ في سَواده وسيفه إلى جانب أبيه: أيحلف أميرُ المؤمنين وتحلفُ أنت؟! فالتفتَ إلى المنصور فقال: ومَن هذا؟ فقال: هو ابني محمَّد، ووليُّ العهد من بعدي، فقال عمرٌو: إنَّك سمَّيتَه اسمًا لم يستحقَّه لعمَلِه، وألبستَه لَبوسًا ما هو لَبوسُ الأبرار، ولقد مهَّدتَّ له أمرًا أمتعُ ما يكون به أشغلُ ما يكون عنه!

ثم التفت إلى المهديِّ فقال: يا ابن أخي، إذا حلَف أبوك وحلف عمُّك فلأَن يحنَث أبوك أيسَرُ من أن يحنثَ عمُّك؛ لأنَّ أباك أقدَرُ على الكفَّارة من عمِّك.

ثم قال المنصور: يا أبا عثمان، هل من حاجة؟ قال: نعم، قال: وما هي؟ قال: لا تبعَث إليَّ حتَّى آتِيَك، ولا تُعطني حتى أسألَك، فقال المنصور: إذًا والله لا نلتقي! فقال عمرٌو: عن حاجتي سألتَني، فودَّعه وانصرَف، فلمَّا ولَّى أمدَّه بصَرَه وهو يقول:

كُلُّكم يَمشي رُوَيْدْ كلُّكم يَطلُبُ صَيْدْ

غيرَ عَمرِو بنِ عُبيدْ

علماء أمام المهديِّ

قال سفيان الثَّوريُّ: لمَّا حجَّ المهديُّ قال: لا بُدَّ لي من سفيان، فوضَعوا لي الرَّصَد حول البيت فأخَذوني باللَّيل، فلمَّا مَثُلتُ بين يديه أدناني، ثم قال: لأيِّ شيء لا تأتينا فنَستشيرَك في أمرنا؛ فما أمرتَنا من شيء صِرنا إليه، وما نهيتَنا عن شيء انتهينا عنه؟!

فقلتُ له: كم أنفقتَ في سفَرك هذا؟ قال: لا أدري، لي أُمَناء ووُكلاء، قلتُ: فما عُذرُك غدًا إذا وقفتَ بين يدَي الله تعالى فسألَك عن ذلك؟! لكنَّ عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه لمَّا حجَّ قال لغلامه: كم أنفقتَ في سفرنا هذا؟ قال: يا أمير المؤمنين ثمانيةَ عَشَرَ دينارًا، قال: ويحَك! أجحَفنا ببيت مال المسلمين[1].

كان ابنُ أبي ذئب - واسمُه محمَّد بن عبد الرَّحمن بن المُغيرة - جالسًا في المسجد النبويِّ بالمدينة، فدخل أمير المؤمنين المهديُّ فلم يبقَ أحدٌ إلَّا قام.

---

(١) انظر: كتاب "سراج الملوك".

فلمَّا وصل ابنَ أبي ذئب قال له المسيِّب بن زهير: قُمْ، هذا أمير المؤمنين، فقال: إنَّما يقوم الناس لربِّ العالمين، فقال له المهديُّ: دَعْه؛ فلقد قامت كلُّ شعرة في رأسي[١].

كان صالِحُ بن بشر المُرِّي من الزهَّاد المعدودين، وكان يعظ ويحضُر مجلسَه سفيانُ الثوريُّ وغيرُه من العلماء، وكان سفيانُ يقول: هذا نذيرُ قوم، وقد استدعاه المهديُّ ليحضر عنده، فجاء إليه راكبًا على حمار، فدنا من بِساط الخليفة وهو راكب، فأمر الخليفة ابنَيه - وليَّي العهد من بعده: موسى الهادي، وهارون الرَّشيد - أن يقوما إليه لِيُنْزلاه عن دابَّته، فابتدَراه فأنزَلاه، فأقبل صالحٌ على نفسه فقال: لقد خبتُ وخسرتُ إن أنا داهنتُ ولم أصدَعْ بالحقِّ في هذا اليوم وفي هذا المَقام.

ثم جلس إلى المهديِّ فوعَظه موعظة بليغةً حتَّى أبكاه، ثم قال له: اعلم أنَّ رسول الله ﷺ خَصمُ مَن خالفه في أمَّته، ومَن كان محمَّدٌ خَصمَه كان الله خصمَه، فأعِدَّ لمُخاصمة الله ومُخاصمة رسوله حُججًا تضمَن لك النَّجاة،

(١) "العلم والعلماء" (ص٩٥).

وإلَّا فاستسلِم للهلَكة، واعلم أنَّ أبطأ الصَّرعَى نهضةً صريعُ هوَى بدعتِه، واعلم أنَّ الله قاهرٌ فوق عباده، وأنَّ أثبَتَ النَّاس قدَمًا آخَذُهم بكتاب الله وسُنَّة رسوله. في كلام طويل.

فبكى المهديُّ وأمر بكتابة ذلك الكلام في دواوينه[1].

(١) "البداية والنِّهاية" (١٠/ ١٧٠-١٧١).

الفُضيل بن عِياض والرَّشيد

وقال الفضلُ بن الرَّبيع: حجَّ هارون الرَّشيد، فبينما أنا نائمٌ ذات ليلة إذ سمعتُ قَرع الباب فقلتُ: مَن هذا؟ فقال: أجِب أميرَ المؤمنين، فخرجتُ مسرعًا فإذا أنا به أمير المؤمنين، فقلتُ: يا أمير المؤمنين، لو أرسلتَ إليَّ أتيتُك، فقال: ويحَك! قد حاك في نفسي شيءٌ لا يُخرجه إلَّا عالم، انظر لي رجلًا أسأله؟ قلتُ: هاهنا سفيانُ بن عُيينة قال: امضِ بنا إليه.

فأتيناه فقَرعتُ عليه الباب فقال: مَن هذا؟ فقلتُ: أجب أميرَ المؤمنين، فخرج مسرعًا، فقال: يا أمير المؤمنين، لو أرسلتَ إليَّ أتيتُك، قال: خُذْ لما جئنا له، فحادثَه ساعةً ثم قال له: عليك دَين؟ قال: نعم، قال: يا عبَّاس، اقضِ دينَه.

ثمَّ انصرفنا فقال: ما أغنى عنِّي صاحبُك شيئًا، فانظر لي رجلًا أسأله، فقلت: هاهنا عبد الرزَّاق بن همَّام، فأتَيناه فقرعتُ عليه البابَ فقال: مَن هذا؟ قلتُ: أجب أمير المؤمنين، فخرج مسرعًا فقال: يا أمير المؤمنين، لو

أرسلتَ إليَّ أتيتُك، فقال: خُذْ لما جئنا له، فحادَثَه ساعة، ثم قال له: عليك دَين؟ قال: نعم، فقال: يا عبَّاس، اقضِ دَينه.

ثم انصرفنا، فقال: ما أغنى عنِّي صاحبُك شيئًا، فانظر لي رجلًا أسأله: فقلتُ: هاهنا الفُضيل ابن عِيَاض قال: امضِ بنا إليه، فأتيناه وإذا هو قائمٌ يصلِّي في غرفة يتلو آيةً من كتاب الله ويردِّدها، فقرعتُ الباب فقال: مَن هذا؟ فقلتُ: أجب أمير المؤمنين، فقال: ما لي ولأمير المؤمنين؟ فقلتُ: سبحان الله، أمَا عليك طاعة؟ فقال: أوَليس قد رُويَ عن النبي ﷺ أنَّه قال: «ليس للمؤمن أن يُذِلَّ نفسَه».

فنَزل ففتَح الباب، ثم ارتقى الغرفةَ فأطفأ السِّراج، ثم التجأ إلى زاويةٍ من زوايا الغرفة، فجعَلنا نجول عليه بأيدينا فسبقَت كفُّ الرَّشيد كفِّي إليه فقال: أوَّاه من كفٍّ ما ألينَها إن نجَت غدًا من عذاب الله تعالى!

قال: فقلتُ في نفسي: ليكلِّمنَّه اللَّيلة بكلام نقيٍّ من قلب نقيٍّ!

فقال: خُذ لما جئنا له يرحمك الله، قال: وفيمَ

جئتَ؟ حملتَ على نفسك، وجميعُ مَن معك حمَلوا عليك، حتَّى لو سألتَهم عند انكشاف الغِطاء عنك وعنهم أن يَحمِلوا عنك شِقصًا من ذَنْب ما فعَلوا، ولكان أشدُّهم حبًّا لك أشدَّهم هربًا منك!

ثم قال: إنَّ عمر بن عبد العزيز لمَّا ولِيَ الخلافةَ دعا سالِمَ بن عبد الله ومحمَّدَ بن كعب القُرَظيَّ ورجاءَ بن حَيْوَة، فقال لهم: إنِّي قد ابتُلِيت بهذا البلاء فأَشيروا عليَّ، فعَدَّ الخلافةَ بلاء وعَدَدتَّها أنت وأصحابُك نعمة.

فقال له سالم بن عبد الله: إن أردتَّ النَّجاة غدًا من عذاب الله فصُمْ عن الدُّنيا، وليكن إفطارُك فيها الموتَ، وقال له محمَّد بن كعب: إن أردتَّ النَّجاة من عذاب الله فليكن كبيرُ المسلمين لك أبًا، وأوسطُهم عندك أخًا، وأصغَرُهم ولَدًا، فبَرَّ أباك، وارحَم أخاك، وتحنَّن على ولدك، وقال له رجاءُ بن حيوة: إن أردتَّ النَّجاة من عذاب الله غدًا فأحِبَّ للمسلمين ما تحبُّ لنفسك، واكرَه لهم ما تكرَهُ لنفسك، ثمَّ متى شئتَ مُت.

وإنِّي لأقول لك هذا، وإني لأَخاف عليك أشدَّ الخوف يومَ تزِلُّ الأقدام!

فهل معَك - رحمك الله - مثلُ هؤلاء القوم مَن يأمرُك بمثل هذا؟ فبكى هارون الرَّشيد بكاءً شديدًا حتَّى غُشي عليه.

فقلت: ارفُق بأمير المؤمنين، فقال: يا ابنَ أمِّ الرَّبيع، قَتلتَه أنت وأصحابُك وأرفُقُ به أنا؟!

ثم أفاق فقال: زدني، فقال: يا أمير المؤمنين، بلغَني أنَّ عاملًا لعمر بن عبد العزيز شكا إليه سَهرًا فكتب إليه عمرُ بن عبد العزيز: يا أخي، اذكُر سهرَ أهل النَّار في النَّار وخلودَ الأبد؛ فإنَّ ذلك يطَّرِدُ بك إلى ربِّك نائمًا ويَقظانَ، وإيَّاك أن تزلَّ قدَمُك عن هذا السَّبيل فيكون آخرَ العهد بك ومنقطَعَ الرَّجاء منك، فلمَّا قرأ كتابَه طوى البلاد حتَّى قَدِم عليه، فقال له عمرُ: ما أقدَمَك؟ قال له: خلعتَ قلبي بكتابك! لا وَليتُ لك ولايةً أبدًا حتَّى ألقى الله تعالى.

فبكى هارونُ بكاءً شديدًا، ثم قال: زدني، فقال: يا أمير المؤمنين، إنَّ العبَّاس عمَّ النبيِّ ﷺ جاءه، فقال: يا رسول الله، أمِّرني على إمارة، فقال له النبيُّ ﷺ: «يا عبَّاس يا عمَّ النبي، نفسٌ تُحييها خيرٌ من إمارةٍ لا تُحصيها، إنَّ الإمارة حسرةٌ ونَدامة يوم القيامة، فإن استطعتَ ألَّا

تكون أميرًا فافعل».

فبكى هارونُ الرَّشيد بكاءً شديدًا ثم قال: زدني يرحمك الله، قال: يا حسَنَ الوجه، أنت الذي يسألُك الله تعالى عن هذا الخلق يوم القيامة، فإن استطعتَ أن تقيَ هذا الوجهَ من النَّار فافعل، وإيَّاك أن تُصبح وتُمسي وفي قلبك غشٌّ لرعيَّتك؛ فإنَّ النبيَّ ﷺ قال: «مَن أصبح لهم غاشًّا لم يَرِح رائحةَ الجنَّة».

فبكى هارون بكاءً شديدًا، ثم قال: عليك دَين؟ قال: نعم، دَين لربِّي لم يحاسبني عليه، فالويل لي إن سأَلني، والويلُ لي إن ناقشَني، والويل لي إن لم يُلهِمني حجَّتي، قال: إنَّما أعني دَين العباد، قال: إنَّ ربِّي لم يأمُرني بهذا، أمرَني أن أصدُقَ وعدَه وأطيع أمرَه، فقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥٦ - ٥٨].

فقال له: هذه ألفُ دينار، خُذْها فأنفِقها على عيالك، وتَقوَّ بها على عبادة ربِّك، فقال: سبحان الله، أنا أدلُّك على النَّجاة وتكافئني بمثل هذا؟! سلَّمك الله ووفَّقك، ثم

صمَت فلم يُكلِّمنا، فخرَجنا من عنده، فقال لي هارونُ: إذا دلَلتَني على رجل فدُلَّني على مثل هذا، هذا سيِّد المسلمين اليوم[١].

وروى أبو نُعيم في "الحِلية" عن الفُضيل بن عِيَاض، قال: لمَّا دخل على هارونَ أميرِ المؤمنين قال: أيُّكم هو؟ قال: فأشاروا إلى أمير المؤمنين، فقال: أنت هو يا حسَن الوجه؟ لقد وُلِّيتَ أمرًا عظيمًا، إنِّي ما رأيت أحدًا هو أحسنُ وجهًا منك، فإن قدَرتَ ألَّا تُسوِّد هذا الوجهَ بلفحةٍ من النَّار فافعل.

فقال لي: عِظْني، فقلتُ: ماذا أَعِظُك؟ هذا كتاب الله تعالى بين الدَّفتين، انظر ماذا عمل بِمَن أطاعه، وماذا عَمل بِمَن عصاه، وقال: إنِّي رأيت النَّاس يَغوصون على النَّار غوصًا شديدًا ويطلبونها طلبًا حثيثًا، أما والله لو طلبوا الجنَّة بمثلها أو أيسر لنالوها، فقال: عُدْ إليَّ، فقال: لو لم تَبعث إليَّ لم آتِك، وإن انتفعتَ بما سمعتَ منِّي عدتُّ إليك[٢].

(١) "سراج الملوك"، و"حلية الأولياء" (٨/ ١٠٥-١٠٧).
(٢) "حلية الأولياء" (٨/ ١٠٥).

والفُضيل والرَّشيد وابن السمَّاك

قال الفُضيل بن عِياض لهارونَ الرَّشيد: إنَّ الله لم يجعل أحدًا من هؤلاء فوقك في الدُّنيا، فاجهَد نفسَك ألَّا يكون أحدٌ منهم فوقك في الآخرة، فاكدَح لنفسك وأعمِلها في طاعة ربِّك.

وقال له ابن السمَّاك: إن الله لم يجعل أحدًا فوقك، فاجتهد ألَّا يكون فيهم أحدٌ أطوَعَ إلى الله منك، فقال: لئن كنتَ أقصرتَ في الكلام لقد أبلغتَ في الموعظة.

ودخل عليه ابن السمَّاك يومًا فاستسقى الرَّشيدُ فأُتِي بقُلَّة فيها ماء مبرَّد، فقال لابن السمَّاك: عظني، فقال: يا أمير المؤمنين، بكم كنت مشتريًا هذه الشَّربة لو مُنِعتَها؟ فقال: بنصف ملكي، فقال: اشرب هنيئًا، فلما شرب قال: أرأيت لو مُنِعتَ خروجها من بدنك بكم كنت تشتري ذلك؟ فقال: بنصف ملكي الآخَر، فقال: إنَّ مُلكًا قيمة نصفه شربة ماء وقيمة نصفه الآخَر بَوْلة لخَليقٌ ألَّا يُتنافَس فيه، فبكى هارون.

وقال له ابن السمَّاك يومًا: إنَّك تموت وحدك، وتدخل القبر وحدك، وتُبعَث منه وحدك، فاحذَر المقام بين يدَي الله ﷻ والوقوف بين الجنَّة والنَّار حين يؤخَذ بالكَظَم، وتزلُّ القدَم، ويقَعُ النَّدم، فلا تُقبل توبة، ولا عثرة تُقال، ولا يُقبل فداء بمال، فجعل الرَّشيد يبكي حتَّى علا صوتُه، فقال يحيى بن خالد: يا ابن السمَّاك، لقد شقَقتَ على أمير المؤمنين اللَّيلة، فقام فخرج من عنده وهو يبكي.

وقال له الفُضيلُ بن عِيَاض في كلامٍ كثير ليلةَ وعظه بمكَّة: يا صَبيح الوجه، إنَّك مسؤولٌ عن هؤلاء كلِّهم، وقد قال تعالى: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦]، قال: حدَّثنا ليثٌ عن مُجاهد: الوُصلات التي كانت بينهم في الدُّنيا، فبكى الرَّشيد حتى جعل يشهَق.

ابن السمَّاك يعظ الرشيد

دخل ابنُ السمَّاك على هارونَ الرَّشيدِ فقال له: عظني، قال: يا أمير المؤمنين، إنَّ الله لم يرضَ لخلافته في عباده غيرَك، فلا ترضَ من نفسِك إلَّا بما رضي الله به عنك؛ فإنَّك ابنُ عمِّ رسول الله ﷺ وأنت أَولَى النَّاس بذلك.

يا أمير المؤمنين، مَن طلب فِكَاك رقبته في مُهلة من أَجَلِه كان خليقًا أن يُعتق نفسَه.

يا أمير المؤمنين مَن ذوَّقته الدُّنيا حلاوتها برُكونٍ منه إليها أذاقَته الآخرةُ مَرارتها بتَجافيها.

يا أمير المؤمنين، ناشدتُّك الله أن تُقدِم إلى جنَّة عرضُها السَّماوات والأرض وقد دُعيتَ إليها وليس لك فيها نصيب.

يا أمير المؤمنين، إنَّك تموت وحدك، وتحاسَب وحدك، وإنَّك لا تَقدَم إلَّا على نادمٍ مشغول، ولا تُخلِّف إلَّا مفتونًا مغرورًا، وإنَّك وإيَّانا في دار سفَر، وجيران

ظَعْن[١].

(١) كتاب "سراج الملوك".

عبيد الله العُمري وهارون الرَّشيد

يُروى أنَّ رجلًا قال لعُبيد الله العُمريِّ: هذا هارونُ الرَّشيد في الطَّواف قد أُخلِيَ له المَسعى، فقال له: لا جزاك الله عنِّي خيرًا؛ كلَّفتَني أمرًا كنتُ عنه غنيًّا، ثم جاء إليه فقال له: يا هارون، فلمَّا نظر إليه قال: لبَّيك يا عم، قال: كم ترى هاهنا من خلق الله؟ فقال: لا يحصيهم إلَّا الله ﷻ، فقال له: اعلم أيُّها الرَّجل أنَّ كلَّ واحد منهم يُسأل عن خاصَّة نفسه، وأنت واحد تُسأَل عنهم كلِّهم، فانظر كيف تكون؟ فبكى هارون وجلس، وجعل يُعطونه مِنديلًا منديلًا للدُّموع.

ثم قال له فيما قال: إنَّ الرَّجلَ ليُسرع في مال نفسه فيستحقُّ الحَجْر عليه، فكيف فيمَن أسرع في مال المسلمين، فيُقال: إنَّ هارون كان يقول بعد ذلك: إني لأحبُّ أن أحجَّ في كلِّ عام، وما يمنعُني من ذلك إلَّا عُبيد الله العُمري[1].

(١) كتاب "سراج الملوك".

الرَّشيد والعلماء

بَعث هارونُ الرَّشيد إلى مالك وقال له: يا أبا عبد الله، ينبغي أن تختلف إلينا حتَّى يَسمع صبيانُنا "الموطَّأ"، فردَّ عليه مالكٌ يَقول: أعزَّ الله أميرَ المؤمنين، إنَّ هذا العلم منكم خرَج، فإن أنتم أعزَزتُموه عزَّ، وإن أذللتموه ذلَّ، والعلم يُؤتى ولا يَأتي.

فقال له هارونُ: صدقتَ، ثم قال لولَديه: اخرجا إلى المسجد حتَّى تَسمعا مع النَّاس، فقال مالكٌ: بشريطة ألَّا يتخطَّيا رقاب الناس، ويجلسا حيث يَنتهي بهما المجلس، فحضَرا على هذا الشَّرط.

ولما حجَّ الرَّشيد وكان مالكٌ حاجًّا في ذلك العام، أرسل إلى مالكٍ يطلب منه أن يَحمل إليه كتاب "الموطَّأ" حتَّى يسمعه منه، فأبى مالكٌ ذلك، وطلب من الرَّشيد أن يسعى هو إلى العلم.

فقال الرَّشيد: والله لا نسمع إلَّا في بيتك.

وحدَّث عتيقُ بنُ يعقوبَ الزبيديُّ، قال: قَدِم هارونُ

الرَّشيد المدينةَ، وكان قد بلغه أنَّ مالكَ ابن أنس عنده "الموطَّأ" يقرَؤُه على النَّاس، فوجَّه إليه البرمكيَّ فقال: أقرئه السَّلام، وقُل له يَحمل إليَّ الكتاب ويقرؤه عليَّ، فأتاه البرمكيُّ، فقال: أقرئه السَّلام، وقل له: إنَّ العلم يُؤتَى ولا يَأتي.

فأتاه البرمكيُّ فأخبره وكان عنده أبو يوسفَ القاضي، فقال: يا أمير المؤمنين، يبلغ أهلَ العراق أنَّك وجَّهتَ إلى مالكٍ في أمر فخالفك؟ اعزم عليه.

فبينما هو كذلك إذ دخل مالكٌ فسلَّم وجلس، فقال له الرَّشيد: يا ابن أبي عامر، أبعث إليك وتخالفني؟! فقال: يا أمير المؤمنين، أخبرَني الزُّهريُّ عن خارجةَ بن زيدٍ عن أبيه قال: كنتُ أكتب الوحي بين يدَي رسول الله فقال: ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ٩٥]، وابنُ أمِّ مكتوم عند النبيِّ ﷺ فقال: يا رسول الله، إنِّي رجل ضرير وقد أنزَل الله عليك في فضل الجهاد ما قد عَلمت، فقال النبيُّ ﷺ: «لا أدري»، وقلمي رطب ما جفَّ.

ثم وقع فخذ النبيِّ ﷺ على فخذي ثم أُغْمِي على النبيِّ ﷺ، ثم جلس النبيُّ ﷺ، فقال: «يا زيد، اكتب:

﴿غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾».

ويا أمير المؤمنين، حرف واحد بُعث فيه جبريلُ والملائكة عليهم السلام من مسيرة خمسين ألف عام، ألا يَنبغي لي أن أُعزَّه وأُجلَّه؟!

وإنَّ الله تعالى رفعَك وجعلك في هذا الموضع بعمَلِك، فلا تكن أنت أوَّل مَن يضيع عزَّ العلم فيضيع الله عزَّك.

فقام الرَّشيد يمشي مع مالكٍ إلى منزله؛ ليسمع منه "الموطَّأ"، فأجلسه معه على المنصَّة، فلمَّا أراد أن يقرأه على مالكٍ قال له: تقرؤه عليَّ، قال: ما قرأتُه على أحد منذ زمان، قال: فيخرج النَّاس عنِّي حتى أقرأَه أنا عليك، فقال: إنَّ العلمَ إذا مُنِع من العامَّة لأجل الخاصَّة لم ينفَع الله تعالى به الخاصَّة.

فأمرَ معنَ بن عيسى القزَّاز ليقرأه عليه، فلمَّا بدأ ليقرأه قال مالكٌ لهارون: يا أمير المؤمنين، أدركتُ أهلَ العلم ببلدنا، وإنَّهم ليحبُّون التَّواضع للعلم، فنَزل هارونُ عن المنصَّة وجلس بين يدَيه وسمعه[1].

(١) "شذرات الذَّهب، في أخبارِ مَن ذهَب" (١/ ١٩٠-١٩١).

خرج هارونُ الرَّشيد والعبَّاسُ ليلًا إلى زيارة الفُضيل ابن عِياض، فلمَّا وصَلا إلى بابه وجَداه يتلو هذه الآيةَ: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الآية [الجاثية: ٢١]؛ ومعناها: أيظنُّ الذين اكتَسبوا الخطايا ويعمَلون الأعمالَ المذمومةَ أن نسوِّي بينهم في الآخرة وبين الذين يعملون الخيراتِ وهم مؤمنون؟ كلَّا، ساء ما يحكمون.

فقال هارون: إن كنَّا جئنا للموعظة فكفى بهذه موعظة، ثم أمر العبَّاس أن يطرُق عليه البابَ فطرَق بابه، فقال: افتَح الباب لأمير المؤمنين، فقال الفُضيل: ما يَصنع عندي أميرُ المؤمنين؟ فقال: أطِع أمير المؤمنين وافتَح الباب، وكان ليلًا والمصباحُ يتَّقد، فأطفَأه وفتح الباب.

فدخَل الرَّشيدُ وجعل يطوف بيده ليُصافح بها الفُضيل فلمَّا وقعت يدُه عليه قال: الويل لهذه اليد النَّاعمة إن لم تُنجُ من العذاب في القيامة، ثم قال له: يا أمير المؤمنين، استعدَّ لجواب الله تعالى فإنه يوقفك مع كلِّ واحد مسلم على حدَة يَطلب منك إنصافَك إيَّاه، فبكى هارونُ الرَّشيد بكاءً شديدًا وضمَّه إلى صدره فقال له العبَّاس: مهلًا

يا فُضيل؛ فقد قتلتَ أمير المؤمنين، فقال الفُضيل: يا هامان، أنت وقومُك أهلكتُموه وتقول لي: مهلًا فقد قتلتَه!

فقال الرَّشيد للعبَّاس: ما جعلك هامانَ إلَّا وجعَلني فرعونَ!

ثم وضَع الرَّشيدُ بين يديه ألفَ دينار وقال له: هذه من وجهٍ حلال من صَداق أمي وميراثها، فقال له الفُضيل: أنا آمرك أن ترفع يديك عمَّا فيها وتعود إلى خالقك وأنت تُلقيه إليَّ؟! فلم يَقبَلها، وخرج من عنده[1].

يُقال: إنَّ شَقيقًا البلخيَّ دخل على هارون الرَّشيدِ فقال له: أنت شَقيقٌ الزَّاهد، فقال: أنا شقيقٌ ولست بزاهد، فقال له: أوصني، فقال: إنَّ الله تعالى قد أجلسك مكان الصِّدِّيق وإنه يطلب منك مثلَ صِدقِه، وإنه أعطاك موضع عمر بن الخطَّاب الفاروق، وإنه يطلب منك الفَرق بين الحقِّ والباطل مثلَه، وأنه أقعدَك موضع عثمان بن عفَّان ذي النُّورين وهو يطلب منك مثلَ حيائه وكرمه، وأعطاك موضع عليِّ بن أبي طالب وهو يطلب منك العلمَ والعدل

(١) "التِّبر المسبوك، في نصيحة الملوك" لأبي حامد الغزالي (ص١٩).

كما يطلب منه.

فقال له: زدني من وصيتك فقال: نعم، اعلم أنَّ لله تعالى دارًا تُعْرَف بجهنَّم، وأنَّه جعلك على أبواب تلك الدَّار وأعطاك ثلاثة أشياء: بيت المال، والسَّوط، والسَّيف، وأمرك أن تمنع الخلق من دخول النَّار بهذه الثلاثة، فمَن جاءك محتاجًا فلا تمنعه من بيت المال، ومَن خالف أمر ربِّه فأدِّبه بالسَّوط، ومَن قتل نفسًا بغير حقٍّ فاقتله بالسَّيف بإذن وليِّ المقتول، فإن لم تفعل ما أمرَك فأنت الزَّعيم لأهل النار، والمتقدِّم إلى دار البوار.

فقال له: زدني فقال: إنما مثَلك كمثَل مَعين الماء، وسائر العلماء في العالَم كمثل السَّواقي، فإذا كان المَعين صافيًا لا يضرُّ كدَرُ السَّواقي، وإذا كان المَعين كَدِرًا لا ينفع صَفاء السَّواقي[1].

وحضر بعض الزهَّاد بين يدَي خليفةٍ فقال له: عِظني، فقال: يا أمير المؤمنين، إنِّي سافرتُ إلى الصِّين وكان ملكُ الصِّين قد أصابه الصَّمم وذهب سمعُه، فسمعتُه يقول

(١) "التِّبر المسبوك، في نصيحة الملوك" للغزالي (ص ١٨).

يومًا وهو يبكي: والله ما أبكي لزوال سمعي، وإنَّما أبكي لمظلوم يقف ببابي يستغيث فلا أسمع استغاثتَه، ولكن الشُّكر لله إذْ بصَري سالم.

وأمرَ مناديًا ينادي: ألا كلُّ مَن كانت له ظُلامةٌ فلْيلبَس ثوبًا أحمر، فكان يركب الفيل فكلُّ مَن رأى عليه ثوبًا أحمرَ دعاه واستمع شكواه، وأنصفَه من خُصمائه، فانظر يا أمير المؤمنين إلى شفقة ذلك الكافر على عباد الله، وأنت مؤمن من أهل بيت النبوَّة، انظر كيف تريد أن تكون شفقتُك على رعيَّتك؟[1]

ولما حجَّ هارونُ الرَّشيد بعث إلى مالكِ بن أنَس بكيسٍ فيه خَمسُمئة دينار، فلمَّا قضى نُسكَه وانصرف ودخل المدينةَ بعث إلى مالكِ بن أنَس أنَّ أمير المؤمنين يحبُّ أن تنتقل معه إلى مدينة السَّلام، فقال للرَّسول: قل له: إنَّ الكيسَ بخاتمه وقال الرَّسول ﷺ: «والمدينة خيرٌ لهم لو كانوا يَعلَمون».

وقال أبو العَيناء محمَّد بن القاسم: حدثني ابن أبي

(١) "التِّبر المسبوك، في نصيحة الملوك" (ص٢٠).

البَختَريِّ عن أبيه قال: كنَّا مع الرَّشيد في سفر له إلى الرُّوم وقد تقدَّمَت حمولةُ الثَّلج، فاستسقى فبعث الخيلَ في طلب الثَّلج، فجعلَت الخيل تُحصِف الجبل وقد اشتدَّ عطشُه، فقال: اسقني من ماء الرَّحل، فلمَّا أقرَّه في فِيهِ مَجَّه.

فقال له أبو البَختَريِّ: يا أمير المؤمنين، قد كنتُ ألتمس موضعًا لِوَعْظك فلا أجد وقد أمكنَني الآن، أفتَأذَن؟ قال: نعم، قال: فقلتُ: يا أمير المؤمنين، لو شربتَ الحارَّ والقار، ولبستَ الليِّن والخشن، وأكلتَ الطيِّب والخبيث، فإنَّك لا تدري ما يكون من تصرُّف الدَّهر.

فانتفخ في ثوبه حتَّى ظننتُه سيَنحاز عنه ثم انحمَص وعاد لونُه وقال: يا أبا البَختَريِّ، إنَّا نلبس هذه النِّعمة ما أعطتنا، فإذا - وأعوذ بالله - فارقَتنا رجَعنا إلى عُودٍ غير خَوَّار[1].

قال الواقديُّ: دخلتُ على الخليفة المهديِّ بمَحبرةٍ ودفاترَ وكتب عن أشياءَ أريدُ أن أحدِّثه بها، وبعد أن أذن

(١) "كتاب أخبار القضاة" (١/ ٢٥).

لي بالجلوس نهَض وقال: كُن مكانك حتَّى أعود إليك، ودخل دار الحريم ثم خرج متجهِّمًا ممتلئًا غضبًا، فلمَّا جلس قلتُ: يا أمير المؤمنين، خرجتَ على خلاف الحال التي دخلتَ! قال: نعم، دخلتُ على الخَيزُران فوثبَت عليَّ ومدَّت يدها إليَّ، وخرَقَت ثوبي وقالت: يا قشَّاش، وأيَّ خير رأيتُ منك؟!

وإنِّي اشتريتها من نخَّاس، ورأَتْ منِّي ما رأَتْ، وعقَدتُّ لابنيها بولاية العهد، ثم تقول: يا قشَّاش؟!

قلت: يا أمير المؤمنين، قال رسول الله ﷺ: «إنهنَّ يَغلِبنَ الكرام ويَغلبُهن اللِّئام»، وقال: «خيرُكم خيركم لأهله، وأنا خيرُكم لأهلي»، وقال: «خُلقَت المرأةُ من ضِلَع أعوج، إن قوَّمتَه كسرتَه».

وحدَّثتُه في هذا الباب بكلِّ ما حضرَني، فسكَن غضبُه وأسفر وجهه، وطوى ما كان يريد أن يتصرَّفه مع زوجته، وأمرَ لي بألف دينار وانصرفتُ، ولمَّا وصلتُ منزلي وافاني رسولُ الخيزُران وقال: إنَّ سيِّدتي سمعَت جميعَ ما كلَّمتَ به أمير المؤمنين فأحسَن الله جزاءك، وهذه ألفُ دينار إلَّا

عشرة بعثت بها إليك؛ لأنِّي لا أحبُّ أن تساوي صلتي صلةَ أمير المؤمنين، ووجَّهَت إليَّ ثيابًا[١].

(١) "مجلَّة الفكر الإسلامي" من مقال للأستاذ عمر القيمري شهر ربيع الأوَّل ١٣٩٥هـ.

مُنذِر بن سعيد والخليفة عبد الرَّحمن النَّاصر

ومن أخبار القاضي منذر بن سعيد المحفوظة مع الخليفة عبد الرَّحمن بن محمَّد في إنكاره عليه الإسرافَ في البِناء: أنَّ النَّاصر كان قد اتَّخذ لسقف القُبَيبة - المصغَّرةِ الاسم للخصوصيَّة، التي كانت مماثلةً على الصَّرح الممرَّد المشهور شأنه - بقصر الزَّهراء قَراميد مغشَّاة ذهبًا وفضَّة، أنفق عليها مالًا جسيمًا، وفرقَدَ سقفَها بما يشتِّت الأبصار بأشعَّة أنوارها.

وجلس فيها يومًا إثر تمامها لأهل مملكته، فقال لقرابته منهم من الوُزراء وأهل الخِدمة مفتَخِرًا بما صنَعه من ذلك: هل رأيتُم أو سمعتُم ملكًا كان قبلي فعَل مثل فعلي هذا أو قدَر عليه؟ فقالوا: لا يا أمير المؤمنين، وإنَّك الواحد في شأنه كلِّه، وما سبَقَك إلى مبتدَعاتك هذه مَلِكٌ رأيناه ولا انتهى إلينا خبَرُه، فأبهَجه قولُهم وسرَّه.

وبينما هو كذلك إذ دخَل عليه القاضي منذرُ بن سعيدٍ واجمًا ناكس الرَّأس، فلمَّا أخذ مجلسه قال له كالذي قال

لوُزرائه مِن ذِكر السَّقف المُذهَّب واقتداره على إبداعه، فأقبلَت دموعُ القاضي تنحدر على لحيته وقال له: والله يا أمير المؤمنين ما ظننتُ أنَّ الشَّيطان - لعنه الله - يبلُغ منك هذا المبلَغ، ولا أن تُمكِّنه من قلبك هذا التَّمكين، مع ما آتاك الله من فضله ونعمته، وفضَّلك به على العالمين حتَّى يُنْزلك منازل الكافرين!

قال: فانفعل عبد الرَّحمن لقوله، وقال له: انظر ما تقول، وكيف أنزلتَني منزلتَهم؟ فقال له: نعم، أليس الله تعالى يقول: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الزخرف: ٣٣].

فوَجَم الخليفةُ وأطرَق مليًّا، ودموعُه تتساقط خشوعًا لله سبحانه، ثمَّ أقبل على مُنذر، وقال له: جزاك الله يا قاضي عنَّا وعن نفسك خيرًا، وعن الدِّين والمسلمين أجلَّ جزائه، وكثَّر في الناس أمثالَك؛ فالذي قلتَ هو الحقُّ، وقام عن مجلسه ذلك، وأمر بنَقض سقف القبَّة، وأعاد قُرمودَها ترابًا على صفة غيرها[1].

(١) "تاريخ قضاة الأندلس" (ص٧١-٧٢).

وكان الخليفةُ النَّاصر لدين الله كَلِفٌ بعمارة الأرض وإقامة مَعالِمِها، وتخليد الآثار الدالَّة على قوَّة المُلك وعزَّة السُّلطان، فأفضى به البناءُ الذي شاع ذِكرُه أن استفرَغ وُسعَه في تنميقها وإتقان قصورها وزخرَفة مَصانعها، فانهمَك في ذلك حتَّى عطَّل شهود الجمعة بالمسجد الجامع الذي اتَّخذَه ثلاثَ جُمع مُتوالية!

فأراد القاضي منذرٌ أن يُفضيَ بما تناوَله من الموعظة بفَصل الخِطاب والحكمة والتَّذكرة بالإنابة والرَّجعة، فأدخل في خطبته فصلًا مبتدئًا بقوله: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾﴾ [الشعراء: ١٢٨- ١٣٥]، ولا تقولوا: سواءٌ علينا أوعَظتَ أم لم تكن من الواعظين؛ فمتاع الدُّنيا قليل، والآخرة خير لِمَن اتَّقى، وهي دار القرار ومكان الجزاء.

ووصل ذلك بكلام جَزْل، وقولٍ فَصْل، ومضى في ذمِّ تشييد البنيان والاستغراق في زخرفَته والإسراف في الإنفاق

عليه، فجرى طلقًا، وانتزع فيه قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ [التوبة: ١٠٩] إلى آخر الآية.

وأتى بما يُشاكِل المعنى من التَّخويف بالموت والتَّحذير من فُجاءته، والدُّعاء إلى الزُّهد في هذه الدَّار الفانية، والحضِّ على اعتزالها والرَّفض لها، والنَّدب إلى الإعراض عنها، والإقصار عن طلب اللذَّات، ونهي النُّفوس عن اتِّباع هواها.

فأسهَب في ذلك كلِّه، وأضاف إليه من آي القرآن ما يطابقه، وجلَب من الحديث والآثار ما يُشاكله، حتَّى ادَّكر مَن حضر من النَّاس وخشَعوا ورقُّوا، واعتَرفوا وبكَوا، وضَجُّوا ودعَوا، وأعلنوا في التَّضرُّع إلى الله في التَّوبة، والابتهال في المغفرة.

وأخَذ خليفتُهم من ذلك بأوفر حظٍّ، وقد علم أنَّه المقصود به، فبكى وندِم على ما سلَف له، واستعاذ بالله من سخَطه، إلَّا أنَّه وجَد على مُنذر بن سعيد؛ لغِلظ ما تقرَّعه به، فشكا ذلك لولَدِه الأمير الحَكَم بعد انصرافه،

وقال: والله لقد تعهَّدني منذرٌ بخُطبته وما عنَى بها غيري، فأسرف عليَّ وأفرط في تقريعي، ولم يُحسِن السِّياسة في وَعْظي؛ فزعزَع قلبي، وكاد بعصاه يقرَعُني.

واستشاط غيظًا عليه، فأقسَم ألَّا يُصلِّيَ خلفه صلاة الجمعة خاصَّة، فجعَل يلتزم صلاتها وراء أحمدَ بن مطرِّف صاحب الصَّلاة بقرطبة، ويُجانب الصَّلاة بالزَّهراء، فقال له الحكَم: فما الذي يمنعُك من عَزْل منذر عن الصَّلاة بك والاستبدال منه إذْ كرهتَه؟ فزجَره وانتهَره وقال له: أمِثلُ منذر ابن سعيدٍ في فضله وعِلمه وخيره - لا أُمَّ لك - يُعزَل؛ لإرضاء نفس ناكبةٍ عن الحقِّ؟! هذا ممَّا لا يكون، وإنِّي لأستحي من الله ألَّا أجعل بيني وبينه في صلاة الجمعة شفيعًا مثل منذر في ورَعِه وصِدقه، ولكنَّه أحرجَني فأقسمتُ، ولوَدِدتُّ أنِّي أجد سبيلًا إلى كفَّارة يميني، بل يصلِّي بالنَّاس حياتَه وحياتَنا إن شاء الله[1].

(١) "تاريخ قضاة الأندلس" (ص٦٩-٧٠).

الفرَج بن كنانة والحكَم بن هشام

كان الأمير الحكَمُ بن هِشام قد استخلص الفرَجَ بن كِنانةَ وولَّاه قضاء الجماعة بقرطبة.

وكان هو القاضيَ بها أيام الهَرْج المعروف بوقيعة الرَّبَض، وممَّا جرى له حينئذٍ أنَّ بعض أصحاب الأمير الحكَم الذين أرسلَهم على الناس تعلَّقوا بجار الفرَج بن كنانة، اتَّهموه بالحرَكة في الصُّبح وتسوَّروا عليه، وصاح نساؤه.

فسمع القاضي الصُّراخ فقال: ما هذا؟ فقيل: جارك فلان تعلَّق به الحرَس فأخرجوه ليُقتَل، فبادر الخروجَ وكفَّ القومُ عن جاره، وقال لهم: إنَّ جاري هذا بريء السَّاحة، سليم النَّاحية، وليس فيه شيءٌ مما تظنُّون.

فقال له رئيس الحرَس المرسَل معهم: ليس هذا من شأنك، فعليك بالنَّظر في أحباسك وحكومتك، ودَعْ ما لا يَعنيك.

فغضب الفرَج عند ذلك ومشى إلى الأمير الحكَم

فاستأذَن عليه.

فلمَّا دخل قال له بعد السَّلام: أيُّها الأمير، إنَّ قريشًا حاربَت رسولَ الله ﷺ وناصبَته العداوةَ في الله تعالى، ثم إنَّه صفَح عنهم لما أظفَره الله تعالى بهم وأحسَنَ إليهم، وأنت أحقُّ النَّاس بالاقتداء به؛ لقرابتك منه، ومَكانِك من خِلافته في عباد الله.

ثم حكى له قصَّة جاره، وما عرَض له في الدِّفاع عنه، فأمر بتخلية سبيله وبعقاب النَّاظر الذي عارَض القاضيَ، وعفا عند ذلك عن بقيَّة أهل قرطبة، وبسَط الأمانَ بجماعتهم، وردَّهم إلى أوطانهم، وكان هذا القاضي فارسًا شجاعًا يقود الخيلَ ويتصرَّف للسُّلطان في الولايات، وكان له قدرٌ جليل في النَّاس[1].

(١) "تاريخ قضاة الأندلس" (ص٥٣).

نَصر بن ظَريف وعبدُ الرَّحمن بن معاوية

ومن القضاة العادلين نصر بن ظَريف اليَحصَبيُّ؛ كان قد وليَ القضاءَ زمنًا، وسار فيه أجملَ سيرة، من ذلك هذه القضيَّة:

فقد دخَل حبيبٌ القرشيُّ على الأمير عبد الرَّحمن بن معاوية فشَكى إليه القاضي، وذكَر أنَّه يريدُ أن يسجِّل عليه في ضَيعة قِيمَ فيها، وادَّعى عليه الاغتصاب لها، ولاذَ بالأمير من إسراع القاضي إلى الحُكْم عليه من غير تثبُّت، فأرسل الأميرُ إليه وكلَّمه في حبيب ونَهاه عن العجَلة عليه، فخرَج ابن ظريف من يَومه، وعمل بضدِّ ما أراد الأميرُ وأنفَذ الحُكم.

وبلغ الخبرُ حبيبًا، فدخَل إلى الأمير ممتلِئًا غيظًا، فذكَر له ما عمِلَه القاضي، ووصفَه بالاستخفاف بأمره والنَّقْض له، وأغراه؛ فغضب الأمير على القاضي واستحضره، فقال له: مَن أمرَك على أن تنفِذَ حُكمًا وقد أمرتُك بتأخيره والأَناة به؟ فقال له: قدَّمَني عليه رسولُ الله ﷺ؛ فإنَّما بعثَه الله بالحقِّ ليَقضيَ به على القريب والبعيد،

والشَّريف والدَّنيء، وأنت أيُّها الأمير ما الذي حمَلَك على أن تتَحامل لبعض رعيَّتِك على بعض، وأنت تجد مندوحةً بأن تُرضيَ من مالك مَن تُعنَى به وتمدُّ الحقَّ لأجله؟ فقال له: جزاك الله - يا ابنَ ظريفٍ - خيرًا.

وخرج القاضي فدعا بالقوم الذي صارت الضَّيعة إليهم بالاستحقاق، وكلَّمهم فوجَدَهم راضين ببيعها إن أجزَل لهم الثَّمَن، فعقَد فيها البيعَ معهم وصارَت إلى حبيب، فكان بعدَ ذلك يقول: جزى الله ابنَ ظريف عنَّا خيرًا؛ كانت بيدي ضيعةٌ حرام فجعَلها حلالًا!

وكان هذا القاضي من زهده ووَرعِه إذا شُغِل عن القضاء يومًا واحدًا لم يأخُذ لذلك اليوم أَجرًا[1].

(١) "تاريخ قضاة الأندلس" (ص٤٤).

أبو الوفاء ابن عَقيل وجلال الدَّولة مَلِكْشاه

أبو الوفاء عليُّ بن عقيل الحنبليُّ البغداديُّ أحد العلماء الأعلام، وُلد سنة ٤٣١هـ، وتُوفِّي سنة ٥١٣هـ.

كان من الصَّادعين بالحقِّ النَّاصحين للملوك والأُمراء والعامَّة، لا يتردَّد إذا رأى مُنكَرًا أن يغيِّره، ويبادرَ بتنبيه الملوك والأمراء إلى الإصلاح والنَّهج السَّليم، وله في هذا المجال أشياءُ كثيرة، وله هَيبةٌ وكلمةٌ مسموعةٌ، ونصحُه مقبول.

فقد كتَب إلى السُّلطان جلال الدَّولة مَلِكْشاه؛ وكانت الباطنيَّة أفسدوا عقيدته، وبيَّن له فسادَ أقوالهم وبطلانَ مذهبهم، واستحسَن السُّلطان قولَه، ولعَن أولئك المفسِدين.

وكتب مرَّة إلى أبي شجاع وزير الخليفة المقتدي يوضِّح له مضارَّ الوسواس وتجاوُزِ الحدِّ، مُورِدًا الأدلَّةَ الجليَّة، ناصحًا له عمَّا هو فيه من ذلك.

وكتب مرَّة إلى قاضي القضاة أبي الحسن بن الدَّامِغاني

رسائلَ تتضمَّن توبيخَه على تقصيرٍ وقع منه في حقِّه، وكتب إلى الوزير عميد الدَّولة ابن جَهير لمَّا بنى سورَ بغداد، وأظهر العوامُّ في الاشتغال ببنائه المنكَرات:

لولا اعتقادُ صحَّة البعث، وأنَّ لنا دارًا أكون فيها على حال أحمَدُها لما نصَبتُ نفسي إلى مالك عَصري، وعلى الله أعتمدُ في جميع ما أُوردُه بعد أن أُشهِده أنِّي محبٌّ متعصِّب، لكن إذا تقابل دينُ محمَّد ودولة بني جَهِير، فوالله ما أردتُّ هذه بهذه، ولو كنتُ كذلك كنتُ كافرًا، فقلتُ: إنَّ هذا الخَرق الذي جرى بالشَّريعة لمُناصَبة واضعِها، فما بالُنا نَعقِد الختمات وروايةَ الأحاديث فإذا نزلَت بنا الحوادثُ تقدَّمنا بجميع الختمات والدُّعاء عَقيبَها، ثمَّ بعد ذلك طبولٌ وصواني، ومَخانيثُ وخِيال، وكشفُ عورات الرِّجال مع حضور النِّساء، إسقاطًا لحكم الله تعالى؟!

وما عندي يا شرفَ الدِّين أن تقوم بسخطةٍ من سخطات الله تعالى، ترى بأيِّ وجه تَلقى محمَّدًا ﷺ؟! بل لو رأيتَه في المنام مُقَطِّبًا كان ذلك يزعجك في يقظتِك، وأيُّ حُرمةٍ تَبقى لوجوهنا وأيدينا وألسنتنا عند الله إذا

وضَعنا الجباهَ ساجدةً له؟ ثم كيف تُطالب الأجنادَ بتقبيل عتَبة ولثمِ ترابها؟! وتقيم الحدَّ في دهليز الحريم صباحًا ومساءً على قدَح نبيذٍ مختلَفٍ فيه، ثمَّ تمرَح العوامُّ في المُسكِر المُجْمَع على تحريمه، هذا مضافًا إلى الزِّنا الظَّاهر بباب بدر، ولبس الحرير على جميع المتعلِّقين والأصحاب؟!

يا شرف الدِّين، اتَّقِ سخط الله تعالى؛ فإنَّ سخطه لا يُقاومه سماءٌ ولا أرض، وإن فسَدَتْ حالي بما قلتُ فلعلَّ الله يَلطُف بي ويَكفيني هوائجَ الطِّباع، ثم لا تَلُمنا على ملازمة البيوت والاختفاء عن العوام؛ لأنَّهم إن سألونا لم نقل إلَّا ما يقتضي الإعظامَ لهذه القبائح والإنكارَ لها، والنِّياحةَ على الشَّريعة، أترى لو جاءت مَعتَبةٌ من الله سبحانه في منام أو على لسان نبيٍّ - لو كان للوحي نُزول - أو أُلقي إلى رُوع مسلم بإلهام هل كانت إلَّا إليك؟!

فاتَّقِ الله تقوَى مَن علِم بمقدار سخطِه؛ فقد قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥]، وقد ملأَتْكم في عيونِكم مَدائحُ الشُّعراء ومُداجاةُ المتموِّلين بدولتكم الأغنياء الأغبياء الذين خَسِروا اللهَ فيكم، فحَسَّنوا

لكم طرائقَكم، والعاقل مَن عرَف نفسَه، ولا يغرُّه مدحُ مَن لا يَخبُرها[١].

(١) انظر: كتاب "الذَّيل على طبقات الحنابلة" لابن رجب (ص١٤٥-١٤٦).

أبو الفرَج ابن الجوزيِّ والخليفة المستضيء

كان أبو الفرَج ابن الجوزيِّ صريحًا يصدَع بكلمة الحقِّ، وكانت له مَجالسُ الوعظ الشَّهيرة التي يلتقي فيها حشْدٌ من النَّاس يترقَّبونها بفارغ الصَّبر، ويحضُرها الملوك والأمراء والوزراءُ والعلماء والأعيان والعامَّة، وقد أُعطي فيها من الحكمة والبلاغة وسرعة البديهة وقوَّة الحجَّة ما لا يُستطاع وصفُه.

التَفتَ مرَّة وهو في مجلس وعظه إلى ناحية الخليفة المستضيء، فقال: يا أمير المؤمنين، إن تكلَّمتُ خِفتُ منك، وإن سَكتُّ خفتُ عليك، وإنَّ قولَ القائل لك: اتَّقِ الله، خيرٌ لك من قوله لكم: إنَّكم أهلُ بيتٍ مغفورٌ لكم.

كان عمر بن الخطَّاب يقول: إذا بلَغني عن عامل لي أنَّه ظلَم فلم أغيِّره فأنا الظَّالم، يا أمير المؤمنين، وكان يوسُفُ لا يَشبع في زمن القَحطِ حتَّى لا ينسى الجائع، وكان عمرُ يضرب بطنَه عام الرَّمادة ويقول: قَرقِري أو لا تُقرقِري، والله لا ذاقَ عمرُ سمنًا ولا سمينًا حتى يَخصَب

النَّاسُ.

فبكى المستضيء وتصدَّق بمالٍ كثير، وأطلق المَحابيس، وكسا خلقًا من الفُقراء.

عليُّ بن حبيب وجلال الدَّولة ابن بُوَيْه

أبو الحسن عليُّ بن محمَّد بن حبيب البصريُّ الماوَرديُّ المتوفَّى سنة ٤٥٠هـ كان صريحًا لا يُحابي، ولمَّا سأل جلالُ الدَّولة ابن بُويه سنة ٤٢٩هـ الخليفةُ أن يَزيد في ألقابه لقبَ "شاهنشاه" - أي: مَلك الملوك - اختلفَ فقهاء بغداد في جواز التلقُّب بهذا اللَّقب، فأفتى فريقٌ منهم بجوازه كالقاضي أبي الطيِّب الطَّبري، وأفتى الماوَرديُّ بأنَّه لا يجوز، وقطَع ما كان بينه وبين جلال الدَّولة من علائق المودَّة والصَّداقة، فطلبه جلالُ الدَّولة وخاطبَه بقوله: أنا أتحقَّق أنَّك لو حابَيتَ أحدًا لحابيتَني؛ لما بيني وبينك، وما حمَلَك إلَّا الدِّين، فزاد بذلك مَحلُّك عندي.

الطَرْطُوشي والملك الأفضل

قال أبو بكر الطَّرطوشيُّ في كتابه "سراج الملوك": فلمَّا دخلتُ على ملك مصر وهو الأفضل ابن أمير الجيوش، فقلتُ: سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاته، فردَّ السَّلام على نحو ما سلَّمتُ ردًّا جميلًا، وأكرمَ إكرامًا جزيلًا، وأمرَني بدخول مجلسه وأمرَني بالجلوس فيه.

فقلتُ: أيُّها الملك، إنَّ الله سبحانه وتعالى قد أحلَّك محلًّا عاليا شامخا، وأنزلَك منزلًا شريفًا باذخا، وملَّكَك طائفةً من مُلكه، وأشركَك في حُكمِه، ولم يرضَ أن يكون أمرُ أحدٍ فوق أمرك، فلا تَرضَ أن يكون أحدٌ أَولَى بالشُّكر منك، وإنَّ الله تعالى قد ألزمَ الورى طاعتَك فلا يكوننَّ أحدٌ أطوعَ لله منك، وإنَّ الله تعالى أمر عباده بالشُّكر، وليس الشُّكر باللِّسان ولكنَّه بالفِعال والإحسان؛ قال تعالى: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾ [سبأ: ١٣].

واعلم أنَّ هذا المُلْك الذي أصبحتَ فيه إنَّما صار إليك بموت مَن كان قبلَك، وهو خارجٌ عن يدِك مثل ما

صار إليك، فاتَّقِ الله فيما خوَّلَك من هذه الأمَّة؛ فإنَّ الله سائلُك عن النَّقير والقِطمير والفَتيل؛ قال الله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

واعلم أيُّها الملك أنَّ الله تعالى قد آتى مُلكَ الدُّنيا بحذافيرها سليمانَ بنَ داود عليه السلام فسخَّر له الإنسَ والجنَّ والشَّياطين والوحشَ والبهائم، وسخَّر له الرِّيحَ تجري بأمره رُخاءً حيث أصاب، ثمَّ رفَع عنه حسابَ ذلك أجمعَ، فقال له: ﴿هَـٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾﴾ [ص: ٣٩].

فوالله ما عدَّها نعمةً كما عدَدتُّموها، ولا حسبَها كرامةً كما حسبتُموها، بل خاف أن تكون استدراجًا من الله تعالى ومَكرًا به، فقال: ﴿هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل: ٤٠]، فافتَح الباب، وسهِّل الحجاب، وانصُر المظلوم، أعانك الله على ما قلَّدك، وجعلَك كهفًا للملهوف وأمانًا للخائف.

ثم أتممتُ المجلس بأن قلتُ: قد دوَّختُ البلاد شرقًا وغربًا، فما اخترتُ مملكةً تزوَّجتُ فيها ووُلد لي غيرَ هذه

المملكة، ثم أنشدتُّ شِعرًا:

والنَّاسُ أكيَسُ مِن أنْ يَحمَدوا رَجُلًا
حتَّى يَرَوا عِندَهُ آثارَ إحسانِ

النَّووي والظَّاهر بيبرس

كان الإمام محيي الدِّين يُكثِر المكاتَبات إلى الملك الظَّاهر بيبرس ينصَحُه ويعِظُه، قال الشَّيخ علاء الدِّين بن العطَّار: كتب الشَّيخ محيي الدِّين ورَقةً إلى الظَّاهر بيبرس تتضمَّن العدلَ في الرعيَّة وإزالة المُكوس، وكتب فيها معه جماعةٌ ووضَعها في ورقة كتبَها إلى الأمير بدر الدِّين بَيْلِيك الخَزْنَدَار بإيصال ورقة العلماء إلى السُّلطان، وصورتها:

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد الله يحيى النَّووي:

سلام الله تعالى ورحمتُه وبركاته على المولى المُحسن ملك الأمراء بدر الدِّين، أدام الله الكريمُ له الخيرات، وتولَّاه بالحسنات، وبلَّغه من أقصى الآخرة والأُولى كلَّ آماله، وبارك له في جميع أحواله، آمين.

ويُنهي إلى العلوم الشَّريفة أنَّ أهل الشَّام في هذه السَّنة في ضيق عيشٍ وضعف حالٍ؛ بسبب قلَّة الأمطار، وغلاء الأسعار، وقلَّة الغلَّات والنَّبات وهلاك المواشي، وغير

ذلك، وأنتم تعلمون أنَّه تجب الشَّفقة على الراعي الرعيَّة، ونصيحته في مصلحته ومصلحتهم؛ فإنَّ الدِّين النَّصيحة، وقد كتَب خدَمةُ الشَّرع النَّاصحون للسُّلطان المحبوبون له كتابًا يُذكِّره النَّظر في أحوال رعيَّته والرِّفق بهم، وليس فيه ضرر، بل هو نصيحةٌ مَحضَة، وشفقةٌ وذِكرى لأولي الألباب.

والمسؤول مِن الأمير - أيَّده الله تعالى - تقديمُه إلى السُّلطان أدام الله له الخيرات، ويتكلَّم عنده من الإشارة بالرِّفق بالرَّعيَّة بما يجدُه مدَّخرًا له عند الله تعالى، ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ﴾ [آل عمران: ٣٠].

وهذا الكتاب أرسلَه العلماءُ أمانةً ونصيحةً للسُّلطان - أعزَّ الله أنصارَه - ويجب عليكم إيصاله للسُّلطان - أعزَّ الله أنصاره - وأنتم مسؤولون عن هذه الأمانة، ولا عذرَ لكم في التأخُّر عنها، ولا حجَّة لكم في التَّقصير عنها عند الله تعالى، وتُسأَلون عنها يوم القيامة: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [الشعراء: ٨٨]، ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ [عبس: ٣٤- ٣٧].

وأنتم بحمد للَّه تحبُّون الخير وتَحرصون عليه

وتُسارعون إليه، وهذا من أهمِّ الخيرات وأفضل الطَّاعات، وقد أُهِّلتم له، وساقه الله إليكم وهو فضلٌ من الله، ونحن خائفون أن يَزداد الأمر شدَّة إن لم يحصل النَّظر في الرِّفق بهم؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ [الأعراف: ٢٠١]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٥]، والجماعة الكاتبون منتظِرون ثمرةَ هذا، فإذا فعلتم فأجرُكم على الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل: ١٢٨]، والسَّلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

فلما وصلَت الورَقتان إليه أوقَف عليهما السُّلطان، فردَّ جوابَهما ردًّا عنيفًا مؤلمًا، فتكدَّرَت خواطرُ الجماعة الكاتبين، فكتب رضي الله عنه جوابًا لذلك الجواب وهذه صورته:

بسم الله الرَّحمن الرحيم

الحمد للَّه ربِّ العالمين، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وعلى آل محمَّد وسلَّم.

من عبد الله يحيى النَّووي:

يُنهي أنَّ خَدَمةَ الشَّرع كانوا كتبوا ما بلغ السُّلطان - أعزَّ الله أنصارَه - فجاء الجوابُ بالإنكار والتَّوبيخ

والتَّهديد، وفَهِمنا منه أنَّ الجهادَ ذُكر في الجواب على خلاف حُكم الشَّرع، وقد أوجبَ الله أيضًا الكلامَ عند الحُكَّام عند الحاجة إليه؛ فقال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، فوجَب علينا حينئذٍ بيانُه، وحَرُم علينا السُّكوت، وقال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾﴾ [التوبة: ٩١].

وذُكر في الجواب أنَّ الجهاد ليس مختصًّا بالأجناد وهذا أمرٌ لم ندَّعه، ولكن الجهاد فرضُ كفاية، فإذا أقرَّ السُّلطان له أجنادًا مخصوصين ولهم أخبازٌ معلومة من بيت المال كما هو الواقع، تفرَّغ باقي الرعيَّة لمصالحهم ومصالح السُّلطان والأجناد وغيرهم من الزِّراعة والصَّنائع وغيرها ممَّا يحتاج الناس كلُّهم إليه، فجهاد الأجناد مقابَلٌ بالأخباز المقرَّرة لهم، ولا يحلُّ أن يُؤخَذ من الرعيَّة شيء ما دام في بيت المال شيءٌ من نقد أو متاع، أو أرض أو ضياع تُباع، أو غير ذلك.

وهؤلاء علماء المسلمين في بلاد السُّلطان - أعزَّ الله

أنصاره - متَّفقون على هذا، وبيت المال بحمد الله معمور، زاده الله عمارةً وسَعَة وخيرًا وبركة في حياة السُّلطان، المقرونة بكمال السَّعادة والتوفيق والتَّسديد، والظُّهور على أعداء الدِّين، وما النَّصر إلَّا من عند الله.

وإنَّما يُستَعان في الجهاد وغيره بالافتقار إلى الله تعالى واتِّباع آثار النبيِّ ﷺ وما لزمَه من أحكام الشَّرع، وجميع ما كتَبناه أوَّلًا وثانيًا هو النَّصيحة التي نعتدُّها ونَدين الله بها، ونسأل الله الدَّوام عليها حتَّى نلقاه.

والسُّلطان يَعلم أنَّها نصيحةٌ له وللرعيَّة، وليس فيها ما يُلام عليه، ولم نكتب هذا للسُّلطان إلَّا لعِلمِنا أنَّه يحبُّ متابعة الشَّرع ومتابعة أخلاق النبيِّ ﷺ في الرِّفق بالرعيَّة والشَّفقة عليهم، وإكرامه لآثار النبي ﷺ، وكلٌّ ناصح للسُّلطان موافقٌ على هذا الذي كتبناه.

وأمَّا ما ذكر في الجواب من كوننا لم ننكر على الكفَّار كيف كانوا في البلاد، فكيف يُقاس ملوكُ الإسلام وأهلُ الإيمان والقرآن بطُغاة الكفَّار وهم لا يَعتقِدون شيئًا من ديننا؟! وأمَّا تهديد الرعيَّة بسبب نصيحتنا وتهديد طائفة العلماء، فليس هو الأمرَ المرجُوَّ من عدل السُّلطان

وحِلمه، وأيُّ حيلة لضعفاء المسلمين الناصحين نصيحةً للسُّلطان ولهم، ولا علم لهم به؟! وكيف يؤاخَذون به لو كان فيه ما يُلام عليه؟!

وأمَّا أنا في نفسي فلا يضرُّني التَّهديد ولا أكثَرُ منه، ولا يمنعني ذلك من نصيحة السُّلطان؛ فإنِّي أعتقد أنَّ هذا واجبٌ عليَّ وعلى غيري، وما ترتَّب على الواجب فهو خيرٌ وزيادة عند الله تعالى، و﴿إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾﴾ [غافر: ٣٩]، ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾﴾ [غافر: ٤٤].

وقد أمَرَنا رسولُ الله ﷺ أن نقول الحقَّ حيث كنَّا، وألَّا نخاف في الله لومةَ لائم، ونحن نحبُّ السُّلطان في كلِّ الأحوال، ونقول ما ينفعُه في آخرته ودُنياه، ويكون سببًا لدوام الخيرات له، ويَبقى ذِكره له على مرِّ الأيام، ويَخلُد به في الجنَّة، ويجد نفعَه ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ [آل عِمرَان: ٣٠].

وأمَّا ما ذُكر من تمهيد السُّلطانِ البلادَ، وإدامتِه الجهادَ وفتح الحصون وقَهْر الأعداء، فهذا بحمد الله من الأمور الشَّائعة التي اشتَرك في العلم بها الخاصَّةُ والعامَّة،

وطارت في أقطار الأرض، فلله الحمد، وثواب ذلك مُدخَّر للسُّلطان إلى أن تجد كلُّ نفس ما عملت من خير محضرًا، لا حجَّةَ لنا عند الله تعالى إذا تركْنا هذه النَّصيحة الواجبةَ علينا وعليكم.

والسَّلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وكتب إلى الملك الظَّاهر لمَّا احتِيطَ على أملاك دمشق:

بسم الله الرَّحمن الرحيم

قال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الذاريات: ٥٥]، وقال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، وقال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾ [المائدة: ٢].

وقد أوجب الله على المكلَّفين نصيحةَ السُّلطان - أعزَّ الله أنصاره - ونصيحةَ عامَّة المسلمين؛ ففي الحديث الصَّحيح عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «الدِّين النَّصيحة؛ لله وكتابه وأئمَّة المسلمين وعامَّتهم».

ومن نصيحة السُّلطان - وفَّقه الله تعالى لطاعته، وأولاه كرامتَه - أن نُنهي إليه الأحكامَ إذا جرَتْ على خلاف قواعد الإسلام، وأوْجَب الله تعالى الشَّفقة على الرعيَّة، والاهتمامَ بالضَّعَفة وإزالة الضَّرر عنهم؛ قال الله تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨]، وفي الحديث الصَّحيح: «إنَّما تُنصَرون وتُرزَقون بضُعفائكم».

وقال ﷺ: «مَن كشَف عن مسلم كُربةً من كُرَب الدُّنيا كشَف الله عنه كربةً من كُرب يوم القيامة، والله في عَون العبد ما كان العبدُ في عون أخيه».

وقال ﷺ: «من وَلِيَ من أمر أمَّتي شيئًا فرَفَق بهم فارفُق اللهُمَّ به، ومن شقَّ عليهم فاشقُق اللَّهم عليه»، وقال ﷺ: «كلُّكم راعٍ وكلُّكم مسؤول عن رعيَّته».

وقال ﷺ: «إنَّ المقسطين على منابرَ من نور عن يَمين الرَّحمن، الذين يَعدِلون في حكمِهم وأهلهم وما وَلُوا».

وقد أنعم الله علينا وعلى سائر المسلمين بالسُّلطان أعزَّ الله أنصاره؛ فقد أقامه لنُصرة الدِّين والذَّبِّ عن المسلمين، وأذلَّ له الأعداء من جميع الطَّوائف، وفتح عليه الفتوحات المشهورةَ في المدَّة اليسيرة، وأوقع الرُّعْب

منه في قلوب أعداء الدِّين وسائر المارقين، ومهَّد له البلادَ والعباد، وقمَع بسيفِه أهلَ الزَّيغ والفساد، ونسأل الله الكريمَ دوامَها لنا وللمسلمين، وزيادتَها في خير وعافية، آمين.

وقد أوجب الله شُكرَ نعمِه، ووعَد الزِّيادة للشَّاكرين؛ فقال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]، وقد لحق المسلمين بسبب هذه الحَوطة على أملاكِهم أنواعٌ من الضَّرر لا يمكن التَّعبيرُ عنها، وطُلِب منهم إثبات ما لا يَلزمُهم، فهذه الحَوطة لا تحلُّ عند أحدٍ من عُلماء المسلمين؛ بل مَن في يده شيء فهو مِلكُه لا يحلُّ الاعتراض عليه ولا يكلَّف بإثبات.

وقد اشتَهر من سيرة السُّلطان أنَّه يحبُّ العمل بالشَّرع ويوصي نوَّابه به، فهو أولى من عَمِل به، والمسؤول: إطلاق النَّاس من هذه الحَوطة والإفراج عن جميعِهم، فأطلِقْهم أطلَقَك الله من كلِّ مَكروه؛ فهم ضَعَفة، وفيهم الأيتامُ والأراملُ والمساكين والضَّعَفة والصَّالحون، وبهم تُنصَر وتُغاث وتُرزَق، وهم سكَّان الشَّام المباركِ جيران الأنبِياء - صلاة الله وسلامه عليهم - وسكَّان ديارِهم،

فلهم حُرُمات من جهات.

ولو رأى السُّلطان ما يلحَق النَّاسَ من الشَّدائد لاشتدَّ حزنُه عليهم وأطلقَهم في الحال ولم يؤخِّرهم، ولكن لا تُنهى إليه الأمورُ على جِهتها؛ فبالله أغِثِ المسلمين يُغِثْك الله، وارفُق بهم يَرفُقِ الله بك، وعجِّل لهم الإفراج قبل وقوع الأمطار وتلَفِ غلَّاتهم، فإنَّ أكثرهم ورثوا هذه الأملاك عن أسلافهم، ولا يُمكنهم تَحصيل كتُب شراء وقد نُهِبَت كتبُهم.

وإذا رفَق السُّلطان بهم حصَل له دعاءُ رسول الله ﷺ لِمَن رفَق بأمَّته ونصَرَه على أعدائه؛ فقد قال الله تعالى: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ﴾ [محمَّد: ٧]، ويتوفَّر له من رعيَّته الدَّعوات، وتظهر في مملكته البَركات، ويبارَك له في جَميع ما يقصده من الخيرات.

وفي الحديث عن رسول الله ﷺ قال: «مَن سنَّ سنَّةً حسنةً فله أجرُها وأجرُ مَن عمل بها إلى يوم القيامة، ومَن سنَّ سنَّةً سيِّئةً فعليه وِزْرُها ووِزْرُ مَن عمل بها إلى يوم القيامة».

ونسأل الله الكريمَ أن يوفِّق السُّلطان للسُّنن الحسَنة

التي يُذكَر بها إلى يوم القيامة، ويَحمِيَه من السُّنن السيِّئة، فهذه نصيحتُنا الواجبة علينا للسُّلطان، ونرجو من فضل الله تعالى أن يُلهمَه فيها القَبول.

والسَّلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

ولمَّا خرج الظَّاهر بيبرس إلى قتال التَّتار بالشَّام أخَذ فتاوى العلماء بأنَّه يجوز له أخذُ مالٍ من الرَّعيَّة؛ ليستنصِرَ به على قتال العدوِّ، فكتب له فقهاءُ الشَّام بذلك.

فقال: هل بقيَ أحد؟ فقيل: نعم، بقِي الشَّيح محيي الدِّين النَّووي، فطلبَه فحضر فقال: اكتُب خطَّك مع الفقهاء، فامتنع، فقال: ما سببُ امتِناعك؟ فقال: أنا أعرف أنَّك كنتَ في الرِّقِّ للأمير بندقدار وليس لك مال، ثمَّ منَّ الله عليك وجعَلك ملكًا، وسَمعتُ أنَّ عندك ألفَ مَملوك، كلُّ مملوك له حِياصَةٌ من ذهَب، وعندك مئتا جارية، لكلِّ جارية حُقٌّ من الحُليِّ، فإذا أنفقتَ ذلك كلَّه وبقيَت مَماليكُك بالبُنود الصُّوف بدلًا عن الحَوائص، وبقِيَت الجواري بثيابِهنَّ دون الحُلي - أفتيتُك بأخذ المال من الرَّعيَّة.

فغضِب من كلامه وقال: اخرج من بلدي - عنَى

دمشق - فقال: السَّمع والطَّاعة، وخرج إلى نَوى، فقال الفقهاء: إنَّ هذا من كبار علمائنا وصُلحائنا، وممَّن يُقتدى به؛ فأعِدْهُ إلى دمشق! فرسم برجوعه، فامتنَع الشَّيخ وقال: لا أدخلُها والظَّاهر بها، فمات الظَّاهر بعد شهر[1].

(١) "حسن المحاضرة" للسُّيوطي.

سلطان العلماء يبيع الأمراء

عزُّ الدِّين بن عبد السَّلام المولود سنة ٥٧٧ هـ والمتوفَّى سنة ٦٦٠ هـ، سُلطان العلماء، اشتَهر بالأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكَر، لا يبالي ذَوي مَناصبَ أو جاهٍ أو إمارة، بل يَصدَع بالحق.

وكان الملكُ الصَّالح إسماعيلُ بن العادل سلطانُ دمشق بعد وفاة الملك الأشرف (٦٣٥ هـ) قد نشَأ بينه وبين ابن أخيه الصَّالح نَجم الدِّين أيُّوب خلاف، فتحالف إسماعيلُ مع الفَرَنج الصَّليبيِّين؛ ليساعدوه على نجم الدِّين، وسلَّم إليهم - لقاءَ ذلك - قلعةَ صَفَد وبلادَها، وقلعةَ الشَّقَف وبلادها، ومناصفة صَيْدا وطَبَرِيَّة وأعمالها، وجبل عاملة وسائر بلاد السَّاحل، وأذن للفرنج في شراء السِّلاح من دمشق.

فضجَّ المسلِمون لذلك وأنكَروا على إسماعيل، وأفتَى العزُّ بن عبد السَّلام بتحريم بيع السِّلاح للفَرَنج، وقال: يحرُم عليكم مبايعتُهم؛ لأنَّكم تتحقَّقون أنَّهم يشترونه

ليُقاتلوا به إخوانَكم المسلمين.

وشدَّد العزُّ الإنكارَ على إسماعيل هذه التصرُّفات الحمقاء، وانتقدَه مِن على منبر جامع دمشق يوم الجمعة، وأبطلَ الدُّعاء له واستبدلَه بدعاء منه:

«اللَّهُمَّ أبرِم لهذه الأمَّة أمرَ رشد تُعَزُّ فيه أولياؤك وتُذَلُّ فيه أعداؤك، ويُعمَل فيه بطاعتك ويُنهى فيه عن معصيتك»، والنَّاس يضجُّون بالدُّعاء.

وكان الملك الصَّالح إسماعيلُ غائبًا عن دمشق، فأُخبِر عن ذلك، فورَد كتابُه بعزل ابن عبد السَّلام عن الخطابة واعتقاله هو والشَّيخ ابن الحاجب المالكي؛ لأنَّه رفع صوتَه في الإنكار عليه مع عزِّ الدِّين، فاعتُقلا.

ثمَّ لمَّا قدِم إسماعيل إلى دمشق أفرج عنهما، وألزم ابنَ عبد السَّلام بملازمة داره وألَّا يُفتي ولا يجتمع بأحد البتَّة، فاستأذنه في صلاة الجُمُعة وأن يعبُرَ إليه طبيبٌ أو مزيِّن (حلَّاق) إذا احتاج إليهما، وأن يعبُرَ إلى الحمَّام، فأذن له في ذلك.

ثم عزم العزُّ على مغادرة دمشق واستأذن إسماعيل

فأذن له، فاختار مصر، وخرج إليها سنة ٦٣٨ هـ ومعه ابن الحاجب المالكيُّ، ومرَّ بالقدس فقضى بها فترةً قصيرة.

ووصل إلى القاهرة سنة ٦٣٩هـ ولكنَّه قبل أن يصِلها وبينما كان في القدس جاء الملك إسماعيلُ والملك المنصورُ صاحب حِمْص وملوك الفَرَنج بعساكرِهم وجيوشِهم إلى بيت المقدس يقصدون الدِّيار المصريَّة، فسيَّر إسماعيلُ بعضَ خواصِّه إلى الشَّيخ بمِنديله، وقال له: تدفع منديلي إلى الشَّيخ وتتلطَّف به غاية التلطُّف، وتستنزِله وتعِدُه بالعودة إلى مَناصبه على أحسن حال، فإن وافقَك فتدخل به عليَّ، وإن خالفَك فاعتقِله في خَيمةٍ إلى جانب خَيمتي.

فلمَّا اجتمع الرَّسول بالشَّيخ شرَع في مُسايستِه ومُلاينته ثمَّ قال له: بينك وبين أن تعود إلى مَناصبك - ما كنتَ عليه وزيادة - أن تنكسِر للسُّلطان وتقبِّل يده لا غير.

فقال الشَّيخ: والله يا مسكينُ ما أرضاه أن يقبِّل يدي فضلًا عن أن أقبِّلَ يده! يا قوم أنتم في وادٍ وأنا في وادٍ! والحمد لله الذي عافاني ممَّا ابتلاكم به، فقال: قد رسَم لي أن توافق على ما يطلب منك وإلَّا اعتقلتُك، فقال الشَّيخ: افعلوا ما بدا لكم.

فأخذه واعتقله في خيمةٍ إلى جانب خيمة السُّلطان.

وكان الشَّيخ يقرأ القرآن والسُّلطان يسمعه، فقال يومًا لملوك الفَرَنج: تسمَعون هذا الشَّيخ الذي يقرأ القرآن؟ فقالوا: نعم، قال: هذا أكبر قُسوس المسلمين؛ قد حبستُه لإنكاره عليَّ تسليمي لكم حصون المسلمين، وعزلتُه عن الخَطابة بدمشق ومن مَناصبه، ثمَّ أخرجتُه فجاء إلى القدس، وقد جدَّدت حبسَه واعتقاله لأجلِكم، فقالت له ملوكُ الفرنج: لو كان هذا قسِّيسنا لغسَلنا رجلَيه وشربنا مَرَقَتها!

ولم يستطع العزُّ الخلاصَ من حبس إسماعيل إلى أن هُزِم إسماعيلُ ومَن معه وهرَبوا، فوصل العزُّ إلى القاهرة في سنة ٦٣٩ هـ.

عندما وصل العزُّ بن عبد السلام إلى مصر عَهِد إليه سلطانُها نجم الدِّين أيُّوب بمنصب رئاسة القضاء بها.

وكان للمماليك نفوذٌ قويٌّ في الدَّولة، وكان هؤلاء الأتراكُ يُلقَّبون بالأمراء، ويحتلُّون الوظائفَ الهامَّة في الدَّولة، وبعد أن بحثَ العزُّ في وضعِهم استبانَ له أنَّهم لا يَزالون أرقَّاء من النَّاحية الشرعيَّة، فبدأ بتطبيق الأحكام عليهِم على هذا الاعتبار في العقود والمعاملات والأنكِحة

والشَّهادة ونحوها.

ففَزعوا لذلك، وحاولوا بكل وسيلةٍ ثَنْيَ العزِّ عن هذا الصَّنيع وتلك الفتاوى فلم يأبَه لهم، وتوسَّطوا لديه بالسُّلطان، فما ازدادَ إلَّا تصميمًا، واستفسَروا من الشَّيخ: ماذا يريد أن يفعل بهم؟ فقال بدون تردُّد: نعقد لكم مجلسًا وينادَى عليكم لبيت مال المسلمين، ويَحصُل عتقُكم بطريق شرعي.

وطلب منه السُّلطان أن يدَعَهم وشأنَهم؛ فغضب وترك القضاء، وعزَم على مغادرة البلاد، وفعلًا حمَل أمتعَتَه على حمار، وأركَب عائلتَه على حمار آخر، وسار مترجِّلًا خلفَهم، خارجًا من القاهرة يقصد الشَّام، فلم يسِرْ إلى نحو نصف بريد حتَّى لحِقَه غالبُ المسلمين وفيهم النِّساء والصِّبيان والرِّجال، ولا سيَّما العلماء والصُّلحاء والتجَّار وأمثالهم، ونصحَ أناسٌ السُّلطان بالسَّعي لاسترداد الشَّيخ واسترضائه، وقيل له: متى راح ذهَب مُلكُك.

فرَكب السُّلطان بنفسه ولحق به واسترضاه وطيَّب خاطره، فرَجع بعد أن اتَّفق معه على بيع هؤلاء المماليك والأمراء في المزاد، وكان نائب السَّلطنة في مركز رفيع

وسلطانٍ مَنيع، وقد تألَّم كثيرًا لموقف الشَّيخ وكَبُر على نفسه أن يُباع كأحد العبيد، وقد ذهبَت جهودُه سُدًى، وكرَّر المحاولات بالتَّرغيب تارة وبالتَّهديد أخرى، والشَّيخ لا يفتأ معتزمًا بيعَهم، حتَّى فقدَ صوابَه وصاح: كيف يُنادي علينا هذا الشَّيخُ ويَبيعنا ونحن ملوكُ الأرض؟! واللهِ لأضربنَّه بسيفي هذا.

ومشى في موكبه شاهرًا سيفَه إلى منزل الشَّيخ، وطَرَق الباب، فخرج إليه ابنُ الشَّيخ الذي عاد إلى والده مسرعًا ينبِّئه الخبرَ الفظيع، وحرصًا على أن يُعالج الشيخُ الموقف بطريقة لبقة، فلم يهتمَّ الشَّيخ لذلك، بل أسرع إلى نائب السَّلطنة المتعاظم غير عابئ به، ولم يكَدْ يُبصِره نائب السَّلطنة حتَّى سقط السَّيفُ منه وأُرعدَت فرائصُه!

لقد انتصرَت شجاعة الإيمان على عُنْجُهِيَّة الكِبر، فبكى وسأل الشَّيخ أن يَدعوَ له، وقال: يا سيِّدي، خير، أيُّ شيء تعمله؟ قال الشَّيخ: أُنادي عليكم وأبيعكم.

قال النَّائب: فيم تصرف ثَمننا؟ قال: في مصالح المسلمين.

قال النَّائب: مَن يقبضه؟

قال: أنا.

فتمَّ له ما أراد، ونادى على الأمراء واحدًا واحدًا، وغالى في ثَمنِهم وقبَضه وصرَفه في وجوه الخير.

قال السُّبكي: وهذا ما لم نسمع بمثله من أحد.

وفي أثناء تولِّيه منصب رئيس القضاة في مصر بعد حوالي سنةٍ مِن تقلُّده هذا المنصب، أبطلَ شهادة الوزير معين الدِّين ابن شيخ الشُّيوخ وزير الملك الصَّالح نجم الدِّين، وذلك على أثر بناء بعض غلمانه طبل خانه (يشبه نادي الموسيقا) على سطح المسجِد، وقد قام العزُّ وأولاده بهدم هذا البناء، وأسقط شهادة الوزير، ثمَّ عزَل نفسَه من القضاء، وقبِل السُّلطان الاستِقالةَ على مضض؛ فقد عَظُم عليه ذلك.

وبعث السُّلْطان رسولًا من قِبَلِه إلى الخليفة المستعصِم ببغداد، وسُئِل هذا الرَّسول: هل سَمع الرِّسالة من السُّلطان نفسه؟ فقال: بل من الوزير (أستاذ الدَّار)، فكان جواب الخليفة الصَّاعق: إنَّ المذكور أسقطه ابنُ عبد السَّلام؛ فنحن لا نَقبَل روايته، فاضطرَّ الرَّسول إلى العودة إلى السُّلطان وإبلاغه بالأمر، ثم رجوعه إلى بغداد بعد تصحيح الرِّسالة.

كانت مَواقف العزِّ الجريئةُ في الحقِّ الصَّريحةُ في العدل كثيرةً جدًّا، فحين دمَّر التَّتارُ بغدادَ واكتَسحوا معظمَ بلدان الشَّام وأرادوا المسير إلى مصر للقضاء عليها، كان على عرش مصر المنصورُ عليُّ بن المعزِّ أَيْبَك، وهو صغير السنِّ، ووصيُّه الأمير قُطز، وقد بلغ العزُّ من العمر عتيًّا؛ إذ قارب الثَّمانين، وكان يدرِّس في المدرسة الصَّالحية، وينشر العلمَ في بيتِه وفي المسجد، وله المكانة المرموقة كعالِمٍ كبير، لمشورته أثرٌ، ولرأيه صدًى.

كان الخطر يتهدَّد مصرَ كما يتهدَّد بقيَّة بلاد الشَّام وبلادًا إسلاميَّة أخرى، ولا بدَّ من العمل الحازم لوقف هذا الزَّحف الشرِّير، وأرسل الملك النَّاصرُ صاحب حلبَ والشَّام كمالَ الدِّين ابن العديم في سنة ٦٥٧ إلى مصر يطلب منهم النَّجدة على قتال التتار.

فجمع قطز القضاةَ والفقهاءَ والأعيانَ لمشاورتِهم واتِّخاذ الخطوات اللَّازمة لمواجهة التَّتار، فحضَروا في دار السَّلطنة بقلعة الجبل، وحضَر الشَّيخ عزُّ الدِّين بن عبد السَّلام، والقاضي بدر الدِّين السَّخاوي قاضي الدِّيار المصريَّة، وغيرُهما من كبار العلماء.

وجلس الملك المنصور على عرشه، وتكلَّم متكلِّم فاستعرض الوضع واحتِياجَ النَّاس إلى مواجهة قويَّة للتَّتار، وإلى سلطانٍ حازم ومال يغذُّون به بيت المال، وهذا يكون بشيءٍ من مساعدة مال الرَّعية لإقامة الجُند وتجهيزهم للسَّفر، وانتهى المتحدِّث الرَّسميُّ فسكَت الحضور.

ثمَّ تحدَّث العزُّ بن عبد السَّلام فكان في رأيِه السَّداد، وفي قوله النُّصح والجُرأة، فلم يرضَ أن يرهق الشَّعب بالضَّرائب، بينما بعض الأمراء والأعيان وبيت السُّلطان يتمكَّنون من البَذل بسخاء، فقال: إذا طرَق العدوُّ بلادَ الإسلام وجَب على العالَم قتالُهم، وجاز لكم أن تأخذوا من الرعيَّة ما تستعينون به على جهادكم، بشرط ألَّا يبقى في بيت المال شيءٌ من السِّلاح والسُّروج الذهبيَّة والفِضِّية والكبابيش المُزركَشة، وأسقاط السُّيوف والفضَّة وغير ذلك، وتبيعوا ما لكم من الحوائص الذهبيَّة والآلات النَّفيسة، ويقتصر كلُّ الجُند على سلاحِه ومَركوبه ويتساوَوا هم والعامَّة، وأمَّا أخذ الأموال من العامَّة مع بقايا في أيدي الجُند من الأموال والآلات الفاخرة، فلا.

وانفضَّ المجلسُ على ما قاله سُلطان العلماء، وحظِيَ

توجيهُه بالقَبول والرِّضا.

ولم يطُل الأمد حتَّى خاض المسلِمون معركةً هائلةً في عين جالوت، وانكسر التَّتار شرَّ كَسرة وانهزموا مَدحورين، فكانت معركةً تاريخيَّة رفعَت رأس المسلمين عاليًا، وردَّ الله التَّتارَ على أعقابِهم خائبين، لقد كان العزُّ بن عبد السَّلام من القلائل الذين يعلو بهم شأنُ الأمَّة ويَسمُق مجدُها، وكان له الصَّوت المجلجِل بالحقِّ لا يَخنَع لذي سُلطان، ولا يحابي ذا وجاهة.

روى السُّبكيُّ قول الملك الظَّاهر بيبرس بعد وفاة العزِّ حينما مرَّت جنازة الشَّيخ تحت القلعة، وشاهد كثرةَ الخلق الذين معه: «اليومَ استقرَّ أمري في الملك؛ لأنَّ هذا الشَّيخ لو كان يقول للنَّاس: اخرجوا عليه، لانتزَعوا المُلك منِّي»!

روى السُّبكيُّ قال: سمعتُ الشَّيخ الإمام رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: سمعتُ شيخنا الباجِيَّ يقول: طلع شيخُنا عزُّ الدِّين مرَّةً إلى السُّلطان في يوم عيد إلى القلعة، فشاهد العَسكر مُصطفِّين بين يدَيه ومجلس المملكة، وما السُّلطان فيه يوم العيد من الأبَّهة وقد خرَج على قومه في زينته، على عادة سلاطين الدِّيار المصريَّة، وأخذَت الأُمراء تقبِّل الأرض بين يدَي السُّلطان!

فالتفتَ الشيخُ إلى السُّلطان وناداه: يا أيُّوب، ما حجَّتك عند الله إذا قال لك: ألم أبوِّئ لك مُلك مصر ثمَّ تبيع الخمور؟! فقال: هل جرى هذا؟

فقال الشَّيخ: نعم، الحانة الفلانيَّة تُباع فيها الخمور وغيرها من المنكَرات وأنت تتقلَّب في نعمة هذه المملكة.

ويُناديه كذلك بأعلى صوتِه والعساكر واقفون، فقال: يا سيِّدي هذا أنا ما عمِلتُه، هذا من زمان أبي، فقال الشَّيخ: أنت من الذين يقولون: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: ٢٢]؟ وسأله تلميذُه الرَّاوي مستفسرًا عن سبب هذه المؤاخذة والانتقاد أمام الملأ في مثل هذا اليوم العظيم؟ فأجابه: يا بنيَّ، رأيتُه في تلك العظمة فأردتُّ أن أُهينَه؛ لئلَّا تكبُر عليه نفسُه فتؤذيه.

قال الباجيُّ: أما خِفْتَه؟

قال: والله يا بني، استحضرتُ هَيبة الله تعالى، فصار السُّلْطان قُدَّامي كالقطِّ!

شيخ الإسلام ابن تيميَّة وملك التَّتار

عندما جاء التَّتار لبلاد الشَّام يريدون اكتساحها واكتساحَ مصر بعدها، قام شيخ الإسلام يحثُّ النَّاس على الجهاد ويدعو إلى الصُّمود، ويمشي على الجنود يرغِّبهم في القتال ويبيِّن لهم ثوابَ المجاهدين، ويستنهض الهممَ للدِّفاع عن بلاد المسلمين، ويجتمع بالزُّعماء والقادة والسَّلاطين والأمراء لهذه الغايات، وحمل السِّلاح وقاتلَ بشجاعةٍ نادرة.

وحين وقعَتِ الهزيمةُ على المسلمين عند وادي سَلَمْيَة في سنة ٦٩٩ هـ، في ٢٧ من شهر ربيع الأوَّل، واستُشهد مَن استُشهد، وتفرَّق النَّاس بَدَدًا، ووقع النَّاس في كرب عظيم.

كانت وجهة التَّتار بقيادة مَلكهم قازان دمشق، واجتمع أعيانُ دمشق للتَّشاور في الأمر الجلَل، واتَّفقوا على أن يأخذوا منه الأمان لأهل دمشق، فخرج هذا الوفد برئاسة شيخ الإسلام ابن تيميَّة.

فتكلَّم الشَّيخ مع ملك التَّتر بكلام فيه القوَّة والحزم والبرهان السَّاطع؛ ممَّا كان سببًا في وقف شرِّهم.

وطلب التَّتر سحب السِّلاح وأخذ الخيول والأموال المخبَّأة عند الناس من جهة الدَّولة.

واقترب جيش التَّتر من دمشق، وأُرسل أحد المتعاونين مع التَّتر - وهو قَبْجَقُ؛ الذي ولَّاه التَّتار نيابة دمشق - إلى نائب القلعة ليُسلِّمها إلى التَّتر، فامتنع أرجواش نائب القلعة من ذلك، رغم إلحاح قَبْجَق، وأرسل إليه بعضَ الأعيان لإقناعه، إلَّا أنَّ شيخ الإسلام ابن تيميَّة كان معارضًا لتسليمِها للتَّتر مهما كانت الحال، وقد بعث إلى نائب القلعة يؤكِّد عليه ألَّا يسلِّمها وبها عين تَطرِف، ولو لم يبق فيها إلَّا حجر واحد فلا تسلِّم لهم ذلك إنِ استطعت.

يقول ابن كثير: وكان في ذلك مصلحة عظيمة لأهل الشَّام؛ فإنَّ الله حفِظ لهم هذا الحصن والمَعقِل الذي جعله الله حرزًا لأهل الشَّام، التي لا تزال دار إيمان وسنَّة حتى يَنزل بها عيسى ابنُ مريم.

لقد هرب السُّلطان ونائبه إلى مصر، والتَّتر قوم لا ذمَّة لهم ولا أمان، وأهل دمشق يتوقَّعون بين لحظة وأخرى

هجومَهم الغاشم، وهاهم قد بدؤوا في السَّلب والنَّهب، وقتلوا من أهل الصالحيَّة وحدها نحوًا من أربعمئة، وأسروا نحو أربعةِ آلاف، ونُهبت المكتبات وبِيعت كتبُها، وتحصَّن النَّاس في المسجد الجامع فكسروا بابه وقتلوا منهم عددًا كثيرًا.

وهنا يقف ابن تيميَّة موقفًا بطوليًّا؛ فيخرج لِمقابلة ملك التَّتر، ولكن الشَّيخ لم يتمكَّن من المقابلة، فعاد بعد يومين هو ومَن معه من أصحابه.

وازدادت المَخاطر وكَثُر اعتِداء التَّتر وأخَذوا أموالًا طائلة، وقد بلَغ ما أخذوه من الخيل فقط أكثرَ من عشَرةِ آلافِ فرس، هذا مع فَرض الضَّرائب الباهظة، والنَّاسُ ما بين هارب ومختبئ في بيتِه، والتَّتار يتأهَّبون لضرب القلعة بالمجانيق.

وذهب قازانُ إلى العراق، وترك بالشَّام نوَّابه في ستِّين ألفَ مقاتل، وقال: إنَّا قد ترَكْنا نُوَّابنا بالشَّام في ستِّين ألفَ مُقاتل، وفي عَزمِنا العودةُ إليها في زمن الخريف، والدُّخولُ إلى الدِّيار المصريَّة وفتحُها.

وقد بقيَت القلعةُ صامدةً، والمحاولاتُ تُبذَل من قِبل

التَّتر لفتحها، ولم يجدوا سبيلًا لذلك.

وخرج شيخ الإسلام فكلَّم نائب ملك التَّتر بولاي في إطلاق سراح المعتقَلين المسلمين، واستنقَذ كثيرًا منهم بعد ثلاثة أيَّام قَضاها في المفاوضة المتَّسمة بالصَّراحة والعزيمة الصَّادقة.

ثمَّ رحلَت الجيوش التَّتريَّة عن دمشق في أوائل شهر رجب ٦٩٩ هـ، وجاءت الأخبارُ عن مسير الجيش المصريِّ إلى الشَّام، الذي وصَل بعد أيَّام بصحبة سلار نائب السَّلطنة في مصر وجمال الدِّين الأفرم، ونادى أرجواش في البلاد: احفَظوا الأسوار وأخرِجوا ما كان عندكم من الأسلِحة ولا تُهملوا الأسوار والأبواب، ولا يَبيتَنَّ أحدٌ إلَّا على السُّور، ومَن بات في داره شُنق!

فاجتمع النَّاس على الأسوار لحِفظ البلاد، وكان الشَّيخ تقيُّ الدِّين ابن تيميَّة يَدور كلَّ ليلة على الأسوار يحرِّض النَّاس على الصَّبر والقتال، ويتلو عليهم آيات الجهاد والرِّباط.

وعاد الجيش المصريُّ بعد شهرين قضاها في دمشق، وكان في دمشق نائب السَّلطنة جمال الدِّين آقوش الأفرم،

وإذا كان العدوُّ قد انزاح عن الشَّام فليس معنى ذلك أنَّه رحَل نهائيًّا، بل إنَّه قد يعود بأشْرسَ ممَّا كان، فلا بدَّ إذًا من الاستعداد وإعلان النَّفير العامِّ، والتَّجنيد الإلزاميِّ للجميع بما فيهم العلماء وطلَّاب المدارس.

فنوديَ في البُلدان: يعلِّق النَّاس الأسلحة بالدَّكاكين، وأن يتعلَّم النَّاس الرَّمي؛ فعُملَت الآمَاجَات في أماكنَ كثيرة من البلد، وعُلِّقَت الأسلحة بالأسواق، ورَسم رئيسُ القضاة بعمل الآماجات في المدارس، وأن يتعلَّم الفقهاءُ الرَّمْي، ويستعدُّوا لقتال العدوِّ إن حضَر[1].

ولا شكَّ أنَّ لشيخ الإسلام ابن تيميَّة دورًا مهمًّا في هذا المنهج السَّليم.

وبعد ثمانية أشهُر من رحيل الجيوش التتريَّة عن دمشق، وردَت أخبارٌ مُفزِعة، مؤدَّاها أنَّ التتار قادمون إلى دمشق، وأنَّهم عازمون على دخول مصر، فانزعج النَّاس ووقعوا في حَيْصَ بَيْصَ، وهرب الكثيرون منهم إلى مصر والكَرَك والشَّوبك والحصون المنيعة، وغلَتْ وسائل النَّقل

(١) "البداية والنِّهاية" (١٤/ ١٢)، والآماجات: جمع آماج، وهو الهدف.

غلاءً فاحشًا، وبِيعَت الثِّياب والأمتعة بأرخص الأسعار.

وجلس شيخ الإسلام ابن تيميَّة بمجلسه في الجامع، وحرَّض الناس على القتال، وساق لهم الآياتِ والأحاديثَ الواردة في ذلك، ونهى عن الإسراع في الفِرار، ورغَّب في إنفاق الأموال في الذَّود عن المسلمين وبلادهم وأموالهم، وأنَّ ما يُنفَق من أُجرة الهرب إذا أُنفِق في سبيل الله كان خيرًا، وأوجبَ جهادَ التَّتر حتمًا في هذه الكرَّة، وتابع المجالسَ في ذلك، ونُودي في البلاد ألَّا يُسافِرَ أحدٌ إلَّا بمرسوم وورقة، فتوقَّف النَّاس عن السير وسكَن جأشُهم، وتحدَّث النَّاس بخروج السُّلطان من القاهرة بالعساكر[1].

وتتابعَت أخبار قدوم التَّتر قاصدين دمشق والنَّاس في هَلَع وفَزَع، والإشاعات تَقوى بأنَّهم يقتربون من البلد، وأنَّهم قد استولَوا على حلَب بعد أن هُزم الحلبيُّون، وإشاعات بأنَّ السُّلطان قد رجع إلى مصر، ونَكَصَ عن نجدتِه للشَّام.

(١) "البداية والنِّهاية" (١٤/ ١٤).

في هذا الجوِّ المضطرب خرج الشَّيخ تقيُّ الدِّين ابن تيميَّة - في مستهلِّ هذا الشَّهر (جُمادَى الأولى سنة ٧٠٠هـ)، وكان يوم السَّبت إلى نائب الشَّام في المَرْج، فثبَّتهم وقوَّى جأشهم وطيَّب قلوبهم ووعدَهم بالنَّصر والظَّفَر على الأعداء، وتلا قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ [الحج: ٦٠].

وبات عند العسكر ليلة الأحد ثمَّ عاد إلى دمشق، وقد سأله النَّائب والأُمراء أن يركَب على البريد إلى مصر يستحثُّ السُّلطان على المجيء، فساق وراء السُّلطان، وكان السُّلطان قد وصل إلى السَّاحل فلم يُدركه إلَّا وقد دخل القاهرة وتفارط الحال، ولكنَّه استحثَّهم على تجهيز العساكر إلى الشَّام إن كان لهم به حاجةٌ، وقال لهم فيما قال: إن كنتم أعرَضتُم عن الشَّام أقَمنا له سلطانًا يحوطه ويَحميه، ويستغلُّه في زمن الأمن، ولم يزل بهم حتَّى جُرِّدت العساكرُ إلى الشَّام.

ثمَّ قال لهم: لو قدِّر أنَّكم لستم حكَّام الشَّام ولا ملوكَه، واستنصَرَكم أهلُه، وجَب عليكم النَّصر، فكيف

وأنتم حكَّامه وسلاطينه وهم رعاياكم وأنتم مسؤولون عنهم؟! وقوَّى جأشهم وضَمِن لهم النَّصر هذه الكرَّة، فخرجوا إلى الشَّام.

فلمَّا تواصلَت العساكرُ إلى الشَّام فرح النَّاس فرحًا شديدًا، بعد أن كانوا قد يئِسوا من أنفُسِهم وأهليهم وأموالهم، ثمَّ قويت الأراجيف بوصول التَّتر وتحقُّق عَود السُّلطان[1].

كان هناك استِعداد، غير أنَّ الوَجَلَ كثير، والشَّائعات تعمَل عملَها في زعزعة الثِّقة، والنَّاس بين مشجِّع ومخذِّل، ومتحمِّس وخائف.

رجَع شيخ الإسلام من الدِّيار المصريَّة في أواخر شهر جُمادى الأولى، بعد أن مكَث بالقلعة بِمصر ثمانية أيَّام يحثُّهم على الجهاد والخروج إلى العدوِّ، وقد اجتمع بالسُّلطان والوزير وأعيان الدَّولة فأجابوه إلى الخروج، وتكلَّلت مساعي الشَّيخ بالنَّجاح.

ومضى من الوقت نحوٌ من سنَتين والأخبار عن التَّتار

(١) "البداية والنِّهاية" (١٤/ ١٥).

متضاربة؛ فمِن قائل: إنَّهم ذهبوا إلى غير رجعة، ومِن زاعمٍ أنَّهم على وَشْكِ العودة والهجوم على دمشق.

وفي شهر رجب سنة ٧٠٢ هـ قوِيَت الأخبارُ بعزم التَّتار على دخول بلاد الشَّام، فانزعج الناس لذلك، وزاد خوفُهم جدًّا، ولا سيَّما وقد تأخَّر وصولُ العساكر المصريَّة.

ولكن الأمل تجدَّد بحدثَين: أحدُهما: تأكُّد خروج القوات المصرية متَّجهة إلى دمشق، والثاني: وقوع معركة بين قوَّات من المسلمين وبين قوَّات للتَّتر عددُها سبعة آلاف، انكسرَت فيها قوَّة التَّتر، فولَّوا مُدبِرين بعد أن قُتِل وأُسِر منهم خَلق كثير، وكان ذلك في العاشر من شعبان سنة ٧٠٢هـ.

كان التَّتر قد عاثوا فسادًا في حِمْص وحماةَ وحلَب بعد أن تقَهقَرَت أمامَ جُموعِهم جيوشُ هذه البلدان، ونزَح كثيرٌ من أهلها، والنَّاس في قلقٍ شديد؛ لتأخُّر بقيَّة الجيوش المصريَّة التي كانت تُرافق السُّلطان عند الوصول، على أنَّ وصول طلائع الجيش المصريِّ قد شجَّع النَّاس وبدؤوا يَهدَؤون، ولو أنَّ الإشاعات والأراجيف لا تنقطع.

واجتمع الأُمراء بالميدان، وتحالَفوا على لقاء العدوِّ وشجَّعوا أنفُسَهم، ونودي بالبلد ألَّا يرحَل منه أحد فسكَن النَّاس، وجلس القضاة بالجامع وحلَّفوا جَماعةً من الفقهاء والعامَّة على القتال، وتوجَّه الشَّيخ تقيُّ الدِّين ابن تيميَّة إلى العسكر الواصل من حَماة، فاجتمع بهم في القُطَيِّفَة فأعلَمَهم بما تحالَف عليه الأمراء والنَّاس من لقاء العدوِّ، فأجابوا إلى ذلك وحلَفوا معهم.

وكان الشيخ تقيُّ الدِّين يَحلف للنَّاس والأُمَراء أنَّكم في هذه الكَرَّة منصورون، فيقول له الأمراء: قُل: إن شاء الله، فيقول: إن شاء الله تحقيقًا لا تعليقًا، وكان يتأوَّل في ذلك أشياء من كتاب الله؛ منها قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾ [الحج: ٦٠].

وقد تكلَّم النَّاس في كيفيَّة قتال هؤلاء التتر؛ من أيِّ قَبيل هو؟! فإنَّهم يُظهِرون الإسلامَ وليسوا بُغاةً على الإمام، فإنَّهم لم يكونوا في طاعتِه في وقتٍ ثمَّ خالفوه، فقال الشَّيخ تقيُّ الدِّين: هؤلاء من جِنس الخوارج الذين خرجوا على عليٍّ ومعاويةَ ورأَوا أنَّهم أحقُّ بالأمر منهما، وهؤلاء يزعُمون أنَّهم أحقُّ بإقامة الحقِّ من المسلمين، ويَعيبون على المسلمين ما

هم متلبِّسون به من المعاصي والظُّلم، وهم متلبِّسون بما هو أعظمُ منه بأضعافٍ مُضاعَفة.

فتفطَّن العُلماء والناس لذلك، وكان يقول: إذا رَأيتُموني من ذلك الجانب وعلى رأسي مصحف فاقتُلوني!

فتشجَّع النَّاس في قتال التَّتار، وقوِيَت قلوبُهم ونيَّاتهم، ولله الحمد[1].

وفي الرابع والعشرين من شعبان سنة ٧٠٢ هـ خرجَت العساكرُ الشَّاميَّة فخَيَّمت على الجُسُورَة من ناحية الكُسْوَة ومعهم القُضاة، وكثرت التَّخمينات في سبب خروجهم؛ فمِن النَّاس من يظنُّ أنَّ خروجهم لملاقاة العدوِّ والتَّأهُّب للمعركة القادمة، ومن النَّاس مَن يحسب خروجَهم هربًا ونجاءً من عدوان التَّتر المرتقَب.

وخرج شيخ الإسلام ابن تيميَّة وأصحابه يشقُّون طريقَهم بين النَّاس الهَلِعين بصعوبةٍ بالغة، لقد أراد الشَّيخُ ورفاقه أن يَخوضوا المعركةَ بالسِّلاح ويَشهَدوا القتال بأنفسهم، وظنَّ بعض النَّاس أنَّهم خرجوا هاربين، فصاروا

(١) "البداية والنِّهاية" (١٤/ ٢٣).

يوجِّهون له اللَّوم الشَّديد والنَّقدَ اللَّاذع، ويقولون: أنت منَعْتَنا من الهرب وها أنت هاربٌ من البلد! ولكنَّه يعرف طريقَه، وأنَّه ليس ممَّن يهرُب ولكنَّه يجاهد ببسالة، فمضى ساكتًا عنهم لا يرى لفضول القول والجدال مجالًا.

كان الجوُّ متوتِّرًا والمَخاوفُ تَتْرَى، وإذا بالفرَج يقع، وتأتي الأنباء عن وصول السُّلطان ومَن معه من العساكر.

وجرَت معركةٌ فاصِلةٌ رهيبةٌ عصر يوم السبت ثاني رمضان ٧٠٢هـ حتَّى السَّاعة الثَّانية من يوم الأحد.

كانت وقعةً عنيفةً بلا ريب، امتدَّت حوالي ستَّ عشْرةَ ساعة، لقد اجتمعَتِ العساكرُ الإسلاميَّة في مَرْج الصُّفَّر، وحصلت الوقعة بشَقْحَب والكُسْوَة، وقُتل من التَّتر عددٌ هائل، وعَمِل السَّيف في رقابهم، وتخاطفَتهم أسلحةُ المسلمين ليلًا ونهارًا، ولَم ينجُ منهم إلَّا القليل الذين فرُّوا إلى الجبال والتِّلال.

استبشَر النَّاس بهذا الفتح العظيم الذي كانوا لا يصدِّقون الأنباء الأولى التي وردَتْ عنه؛ لِما وقع في نفوسهم من الخوف؛ لِما شهِدوه من ضخامة جيش عدوِّهم وشدَّة فتكِه.

ودخل الشيخ تقيُّ الدِّين ابن تيميَّة البلدَ ومعه أصحابُه في الجهاد، ففرِح النَّاس به ودعَوا له، وهنَّؤوه بما يسَّر الله على يديه من الخير؛ وذلك أنَّه ندب العسكرَ الشَّاميَّ أن يسير إلى السُّلطان يستحثُّه على السَّير إلى دمشق، فسار إليه فحثَّه على المجيء إلى دمشق بعد أن كاد يرجعُ إلى مصر، فجاء هو وإيَّاه جميعًا.

فسأله السُّلطان أن يقف معه في معركة القتال، فقال له الشَّيخ: السنَّة أن يقِف الرَّجُل تحت راية قومه، ونحن من جيش الشَّام لا نقف إلَّا معهم، وحرَّض السُّلطانَ على القتال وبشَّره بالنَّصر، وجعَل يحلف بالله الذي لا إله إلَّا هو إنَّكم منصورون عليهم هذه المرَّة، فيقول الأُمراء: قل: إن شاء الله، فيقول: إن شاء الله، تحقيقًا لا تعليقًا!

وأفتَى النَّاسَ بالفِطر مدَّةَ قتالهم وأفطرَ هو أيضًا، وكان يدور على الأجناد والأُمراء فيَأكلُ من شيء معه في يدِه؛ ليُعلمَهم أنَّ إفطارهم ليتقوَّوا على القتال أفضلُ؛ فيأكُل النَّاس، وكان يتأوَّل في الشَّاميِّين قولَه ﷺ: «إنكم مُلاقو العدوِّ غدًا، والفِطرُ أقوى لكم»، فعزَم عليهم في الفِطر عام الفتح؛ كما في حديث أبي سعيدٍ الخُدري.

وكان الخليفة أبو الرَّبيع سليمانُ في صحبة السُّلطان، ولمَّا اصطفَّت العساكرُ والتَحمَ القتال ثبتَ السُّلطان ثباتًا عظيمًا، وأمَر بِجوادِه فقُيِّد حتَّى لا يهرب، وبايع اللهَ تعالى في ذلك الموقف، وجرَت خطوبٌ عظيمة، وقُتل جَماعةٌ من سادات الأمراء يومئذ وخلقٌ من كبار الأمراء.

ثمَّ نزل النَّصر على المسلمين، فلمَّا جاء اللَّيل لجأ التَّتار إلى اقتِحام التُّلول والجبال والآكام، فأحاط بِهم المسلمون يَحرسونهم من الهرَب، ويَرمونَهم عن قوس واحدة إلى وقت الفجر، فقَتلوا منهم ما لا يَعلم عددَه إلَّا الله ﷻ، وجعلوا يَجيئون بهم في الحبال فتُضرَب أعناقهم، ثمَّ اقتحمت منهم جماعةٌ الهزيمة فنجا منهم قليل، ثمَّ كانوا يتَساقطون في الأودِية والمهالك، ثمَّ بعد ذلك غَرِق منهم جماعةٌ في الفُرات بسبب الظَّلام، وكشَف الله بذلك على المسلمين غمَّة عظيمة شديدة، ولله الحمد والمنَّة[1].

(١) "البداية والنِّهاية" (١٤/ ٢٦).

ابن تيميَّة المجاهد

قال الشَّيخ سراج الدِّين أبو حفص عمرُ بن علي بن موسى البزَّار في كتابه "الأعلام العليَّه، في مناقب شيخ الإسلام ابن تيميَّه"[١] (ص٤٣ - ٤٥):

كان رضي الله عنه من أشجع النَّاس وأقواهم قلبًا، ما رأيتُ أحدًا أثبتَ منه ولا أعظم عناءً في جهاد العدوِّ منه، كان يُجاهد في سبيل الله بقلبه ولسانه ويده، ولا يخاف في الله لومةَ لائم.

وأخبَر غيرُ واحد أنَّ الشَّيخ رضي الله عنه كان إذا حضَر مع عسكر المسلمين في جهادٍ يكون بَينهم واقيتَهم، وقُطبَ ثباتِهم، إن رأى من بعضهم هلعًا أو رقَّةً أو جبنًا شجَّعه وثبَّته وبشَّره، ووعده بالنَّصر والظَّفَر والغنيمة، وبيَّن له فضل الجهاد والمجاهدين وإنزالَ الله عليهِم السَّكينةَ، وكان إذا ركب الخَيل يتَحنَّك ويَجول في العدوِّ كأعظم الشُّجعان، ويقوم كأثبتِ الفُرسان، ويكبِّر تكبيرًا أنكى في

(١) طُبع هذا الكُتيب بمطابع القصيم بالرِّياض، سنة ١٣٩٠هـ.

العدوِّ من كثيرٍ من الفتك بهم، ويخوضُ فيهم خوضَ رجل لا يخافُ الموت.

وحدَّثوا أنَّهم رأَوا منه في فتح عكَّا أمورًا من الشَّجاعة يَعجِز الواصفُ عن وصفِها؛ قالوا: لقد كان السَّببَ في تملُّك المسلمين إيَّاها بفعله ومشورته وحُسن نظره.

ولمَّا ظهر السُّلطان قازانُ على دمشقَ المحروسة جاءَه ملك الكَرْج، وبذَل له أموالًا جزيلةً على أن يمكِّنه من الفتك بالمسلمين من أهل دمشق، ووصل الخبرُ إلى الشَّيخ، فقام من فَوره وشجَّع المسلمين ورغَّبهم في الشَّهادة، ووعدَهم على قيامهم النَّصرَ والظَّفر والأمن وزوال الخوف.

فانتُدِبَ منهم رجالٌ من وجوهِهم وكبرائهم وذَوي أحلامهم، فخرَجوا معه إلى حضرة السُّلطان قازان، فلمَّا رآهم السُّلطانُ قال: مَن هؤلاء؟ فقيل: هُم رؤساء دمشق، فأذِن لهم فحضَروا بين يديه، فتقدَّم الشَّيخ رضي الله عنه أوَّلًا، فلمَّا رآه أوقَع الله له في قلبِه هيبةً عظيمة حتَّى أدناه وأجلسه، وأخذ الشَّيخ في الكلام معه أوَّلًا في عكس رأيه عن تسليط المخذول ملك الكَرْج على المسلمين وضَمِن له أموالًا،

وأخبَره بِحُرمة دماء المسلمين، وذكَّره ووعَظه، فأجابَهم إلى ذلك طائعًا، وحُقِنت بسببه دماءُ المسلمين، وحُميت ذراريُّهم وصِينَ حريمُهم.

وحدَّثني مَن أثِق به عن الشَّيخ كمال الدِّين بن المُنجَّا - قدَّس الله روحَه - قال: كنتُ حاضرًا مع الشيخ حينئذٍ، فجعل - يعني الشَّيخَ - يحدِّث السُّلطان بقول الله ورسوله في العدل، ويرفع صوتَه على السُّلْطان حتَّى جثا على ركبَتيْه وجعل يَقرُب منه في أثناء حديثه، حتَّى لقد قرُب أن تُلاصق ركبتُه ركبةَ السُّلطان، والسُّلطانُ مع ذلك مُقبِلٌ عليه بكُليَّته، مُصغٍ لما يقول، شاخصٌ إليه لا يُعرض عنه.

وأنَّ السُّلطان من شدَّة ما أوقع الله له في قلبِه من المحبَّة والهَيبة سأل مَن يخصُّه من أهل حضرته: مَن هذا الشَّيخ؟ وقال ما معناه: إنِّي لم أرَ مثله ولا أثبتَ قلبًا منه، ولا أوقعَ من حديثِه في قلبي، ولا رأيتُني أعظمَ انقيادًا منِّي لأحدٍ منه، فأُخبِر بحاله وما هو عليه من العلم والعمَل، وسأله: إن أحببتَ أن أَعمُر لك بلدَ آبائك حَرَّان وتنتقِل إليه ويكونَ برَسمِك! فقال: لا والله، لا أرغبُ عن مُهاجَر

إبراهيم وأستبدِل به غيره.

فخرج من بين يديه مُكرَّمًا معزَّزًا، قد صنَع الله له بما طوى عليه نيَّته الصَّالحةَ مِن بَذْل نفسِه في طلب حَقْن دماء المسلمين، فبلَّغه ما أراده، وكان ذلك أيضًا سببًا لتَخليص غالب أُسارى المسلمين من أيديهم وردِّهم على أهلِهم وحِفظ حَريمهم، وهذا من أعظم الشَّجاعة والثَّبات وقوَّة الجأش.

وأخبرني مَن لا أتَّهم أنَّ الشَّيخ رضي الله عنه حين وُشِيَ به إلى السُّلطان المعظَّم الملك النَّاصر لدين الله، وأحضره بين يديه، قال من جُملة كلامه: إنَّني أُخبرت أنَّك قد أطاعك الناس وأنَّ في نفسك أخذَ المُلك!

فلم يكترِثْ به، بل قال له بنفس مطمئنَّة وقلب ثابت، وصوت عال سمعَه كثيرٌ ممَّن حضر: أنا أفعل ذلك؟! والله إنَّ مُلكَك ومُلكَ المغول لا يُساوي عندي فَلسَين، فتبسَّم السُّلطان لذلك، وأجابَه في مُقابلته بما أوقع الله في قلبه من الهَيبة العظيمة: إنَّك والله لَصادق، وإن الذي وشى به إليَّ كاذب.

واستقرَّ له في قلبِه من المحبَّة الدِّينيَّة ما لولاه لكان قد فتَك به منذ دهر طويل؛ من كثرة ما يُلقى إليه في حقِّه من الأقاويل الزُّور والبهتان.

الشَّيخ يقاتل الدُّروز

في سنة ٦٩٩هـ حثَّ الشَّيخ تقيُّ الدِّين ابن تيميَّة المسلمين على قتال الدُّروز الإسماعيليَّة؛ لفساد عقائدهم وتواطُئِهم مع التَّتر ونَهبهم للمسلمين وقطعِهم الطَّريق.

ففي العشرين من شوَّال من السَّنة المُشار إليها ركب نائبُ السَّلطنة جمالُ الدِّين آقوش الأفرم في جيش دمشق إلى جبال الجرد وكسروان، وخرج الشَّيخ تقيُّ الدِّين ابن تيميَّة ومعه خلقٌ كثير من المتطوِّعة؛ لقتال أولئك الضُّلَّال، وكانوا ذوي عقيدة فاسدة وعداوةٍ للمسلمين، وكانوا يَعتَدون على عساكر المسلمين بعد أن كسَرَهم التَّتار، فيأخذون أسلحتهم، ونَهبوهم وأخذوا خيولهم، وقتَلوا منهم كثيرًا.

فلمَّا وصل نائبُ السَّلطنة وشيخُ الإسلام ومَن معَهم من العساكر المسلمين إلى بلادِهم جاء رؤساؤُهم إلى الشَّيخ تقيِّ الدِّين ابن تيميَّة فاستتابَهم، وبيَّن للكثير منهم الصَّواب، فالتزموا بردِّ ما أخَذوه من أموال الجيش، وقرَّر

عليهم أموالًا كثيرة يَحملونَها إلى بيت مال المسلمين، وأُقطِعَت أراضيهم وضِياعُهم.

ولم يكونوا من قبلُ يدخلون في الطَّاعة ولا يلتزمون أحكام الملَّة، ولا يَدينون بدين الحقِّ، ولا يحرِّمون ما حرَّم الله ورسولُه[١].

(١) انظر "البداية والنِّهاية" (١٤/ ١٢).

ابن تيميَّة وواقعة عسَّاف النَّصراني

كان هذا الرَّجل من أهل السُّويداء، قد شهِد عليه جماعةٌ أنَّه سبَّ النَّبيَّ ﷺ، وقد استجار عسَّاف هذا بابن أحمد بن حجِّي أمير آل علي، فاجتمع الشَّيخ تقيُّ الدِّين ابن تيميَّة والشَّيخ زين الدِّين الفارقي شيخ دار الحديث، فدخَلا على الأمير عزِّ الدِّين أيبك الحمويِّ نائب السَّلطنة، فكلَّماه في أمره، فأجابَهما إلى ذلك، وأرسل ليُحضِره.

فخرجا من عنده ومعهما خَلقٌ كثيرٌ من الناس، فرأى النَّاس عسَّافًا حين قدم ومعه رجلٌ من العرب فسبُّوه وشتَموه، فقال ذلك الرَّجُل البدويُّ: هو خير منكم - يعني النَّصراني - فرجَمهُما النَّاس بالحجارة وأصابت عسَّاف، ووقعَت خبطة قويَّة، فأرسل النَّائب فطلب الشَّيخين ابن تيميَّة والفارقيَّ فضربهما بين يدَيه ورسم عليهما في العذراويَّة.

وقدِم النَّصرانيُّ فأسلم، وعُقِد مجلس بسببِه، وأثبت بينه وبين الشُّهود عداوة، فحقن دمَه، ثمَّ استدعى الشَّيخين

فأرضاهما وأطلقَهما، ولحق النَّصرانيُّ بعد ذلك ببلاد الحجاز، فاتَّفق قتلُه قريبًا من مدينة رسولِ الله، قتَله ابنُ أخيه هناك.

وصنَّف الشيخ تقيُّ الدِّين ابن تيميَّة في هذه الواقعة كتابه "الصَّارم المسلول، على سابِّ الرَّسول"[1].

(١) "البداية والنِّهاية" (١٣/ ٣٣٥-٣٣٦).

الشيخ عبد الرَّحمن بن حسن والإمام فيصل

كتَب العلَّامة الشَّيخ عبد الرَّحمن بن حسن آل الشَّيخ إلى الإمام فَيصل بن تُركي:

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم

من عبد الرَّحمن بن حسن إلى الإمام المكرَّم فيصل بن تركي، سلَّمَه الله وهَداه، آمين.

السَّلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد:

الواجب علينا وعليكم التَّناصُح في دين الله، والتذكير بنِعَم الله وأيَّامه؛ فإنَّ في ذلك من المَصالح الخاصَّة والعامَّة ما لا يُحيط به إلَّا الله ﷻ، وفي الحديث: «ما نزَل بلاءٌ إلَّا بذنب، وما رُفِع إلَّا بتوبة»، ولله حقٌّ وعبوديَّةٌ على خلقه بحسَب وُسعِهم وقدرتهم؛ ولذلك كان على وُلاة الأمر ورؤساء النَّاس المُطاعين فيهم ما ليس على عامَّتهم وسُوقتهم.

وكلُّ خير في الدُّنيا والآخرة إنَّما حصَل بمتابعة الرُّسل، وقَبول ما جاؤوا به، وكلُّ شرٍّ في الدُّنيا والآخرة

إنَّما حدث ووقع بمعصية الله ورُسلِه، والخروج عمَّا جاؤوا به من النُّور والهدى، وهذه الجملة شرحُها يطول، وتفاصيلُها لا يعلمُها إلَّا الله الذي لا يَعزُب عن عِلمه ﴿مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾﴾ [سبإ: ٣].

والسَّيرُ والاعتِبارُ والاستقراء، والقصصُ والشَّواهدُ، والأمثالُ النقليَّة والعقليَّة - تدلُّ على هذا، وتُرشِد إليه، وبعض الأذكياء يَعرف ذلك في نفسه وأهله وولدِه ودابَّته؛ قال بعضهم: إنِّي لأعصي الله فأعرفُ ذلك في خلُق أهلي ودابَّتي.

واللَّبيبُ يدرك من الأمور الجزئيَّة والكليَّة ما لا يدركُه الغبيُّ الجاهل.

ويكفي المؤمنَ قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ [الانفطار: ١٣-١٤]؛ فإنَّ هذه الآية يدخُل فيها كلُّ نعيم باطنًا وظاهرًا في الدُّنيا والآخرة وفي البَرزَخ.

وقد قال تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النِّساء: ١٢٣] الآية؛

ويدخل في هذا كلُّ شيء من المصائب والجزاء حتَّى الشَّوكة والهمُّ والحَزن، لكنَّ المؤمن يُثاب على ذلك ويُكفَّر عنه بإيمانه؛ كما دلَّ على ذلك الحديث.

إذا عُرف هذا فكثيرٌ من النَّاس يَعرف أنَّ المصائب والابتلاءَ حصَل بسبب الذُّنوب، ويقصد الخروج منها والتَّوبة ولا يوفَّق، نعوذ بالله من ذلك؛ وذلك لأسباب، منها:

- جهلُه بالذُّنوب ومراتبِها وحالِها عند الله.
- ومنها: جهله بالطريق التي تخلِّصه منها وتُنقِذُه من شُؤمِها وشرِّها وتَبِعَتها.

ولا سبيلَ لأحد إلى معرفة ذلك وما يخلِّص منه إلَّا من جهة الرَّسول ﷺ، ومعرفةِ ما جاء به من الهُدى ودين الحقِّ إجمالًا وتفصيلًا؛ فإنَّه الواسطة بين العباد وبين ربِّهم، في إبلاغ ما يحبُّه ويرضاه ويريدُه من عبادِه، ويوجب السَّعادةَ والنَّعيم والفلاح في الدُّنيا والآخرة، وفي إبلاغ ما يضرُّهم ويُسخط ربَّهم، ويوجب الشَّقاوة والعذاب الأليمَ في الدُّنيا والآخرة.

فكلُّ طريقٍ غير طريقِه مسدود على سالكيه، وكلُّ عملٍ

ليس عليه رسمُه وتقريره فهو ردٌّ على عامليه.

وقد عرَفتم - أَرشدكم الله تعالى - أنَّ الله بعث محمَّدًا ﷺ على حينِ فترة من الرُّسل، وأهلُ الأرض قد عمَّتهم الجهالة، وغلبَتهم الضَّلالة عربُهم وعجَمُهم، إلَّا من شاء الله من بقايا أهل الكتاب، فأوَّلُ دعوتِه ﷺ ورسالته وقاعدة نبوَّته ردُّ الخلق إلى الله، وأمرُهم بعبادته وحدَه لا شريك له، وخلعُ ما سواه من الأنداد والآلهة والبَراءة منهم، وهذا هو الذي دلَّت عليه كلمةُ الإخلاص، وهو أوَّل دعوة الرُّسُل، وأوَّل الواجبات والفرائض.

ومكث عليه الصلاة والسلام مدَّةً من الدَّهر - نحو العشر سنين - بعد النبوَّة يدعو إلى هذا ويأمر به، وينهى عن الشِّرك ويُنذر عنه، وفرضُ الفرائض وبقيَّةِ الأركان بعد ذلك مُنجَّمًا؛ لأنَّ هذا هو أهمُّ الأمور وأوجبها على الخَلق، كما في الحديث: «رَأسُ الأمر الإسلام، وعمودُهُ الصَّلاة، وذِروةُ سَنامه الجهادُ في سبيل الله».

وكان من هديه ﷺ أن يبعثَ ويُرسِل رسائلَه إلى أهل الأرض يدعوهم إلى هذا، يبدأ به قبل كلِّ شيء، ولا يأمر بشيء من الأركان إلَّا بعد التِزامه ومعرفته؛ كما دلَّ عليه

حديثُ معاذٍ لمَّا أرسله إلى اليَمَن، وغيره من الأحاديث.

وفي أوقاتِنا بعُدَ العهدُ بآثار النبوَّة، وطال الزَّمان، وكاد الزَّمان يشبهُ زمن الفترة؛ لغلَبة الجهل وشدَّة الغربة، وقد منَّ الله تعالى في هذه الأقطار بشيخ الإسلام رحمه الله تعالى؛ فقام في تجريد التَّوحيد وتَمهيد قواعد الملَّة أتمَّ قيام، حتَّى ظهر بحمد الله منارُ التَّوحيد والإسلام، وآزرَه على ذلك من أسلافكم وأعمامكم مَن آزرَه، رحمةُ الله عليهم أجمعين.

وبعدَهم حصَل منَ النَّاس ما لا يَخفى من الإعراض والإهمال، وعدم الرَّغبة في التنافُس فيما أوجبَه الرَّبُّ من توحيده، وفرضَه على سائر عَبيده، وقلَّ الدَّاعي إلى ذلك والمذكِّرُ به، والمعلِّم له في القُرى والبوادي.

والتَّغافل والتَّساهل في هذه الأصول العِظام، التي هي آكَدُ مباني الإسلام - يُوجب للرَّعيَّة أن يشِبَّ صغيرُهم ويَهرَم كبيرُهم على حالةٍ جاهليَّه؛ لا يعرف الأصول الإيمانيَّه، والقواعد الإسلاميَّه، والله سائلُنا وسائلُك عن ذلك كلٌّ بحسَب قدرتِه وطَوقِه.

والجهلُ والظُّلمُ غالبٌ على النُّفوس، ولها وللشَّيطان

حظٌّ عظيم في ذلك، والنُّفوس الجاهليَّة المعرِضة عن العلم النَّبوي يُسرع إليها الشِّرك والتَّنديد أسرعَ من السَّيل إلى منحدَرِه.

والواجب مراعاةُ هذا الأصل والقيامُ فيه وبعث الدُّعاة إليه، وجعلُ أموال الله التي بأيديكم آلةً له ووقايةً وحمايةً وإعانة؛ فإنَّ هذا مِن أفرَضِ الفرائض وألزَمِها، ولم تُشرَع الإمارة والإمامة إلَّا لأجل ذلك والقيام به، وبقاء الإسلام والإيمان في استِقامة الولاة والأئمَّة على ذلك، وزوال الإسلام وانقضاؤه بانحرافهم عن ذلك، وجعلِ الهمَّة والأموال والقوَّة مصروفةً في غيره، مقصودًا بها سواه من العلوِّ والرِّياسات والشَّهوات.

وكذلك وقَع في آخِر بني العبَّاس ما وقَع من الخلَل والزَّلل، واشتدَّت غربةُ الإسلام، وظهَرَت البِدَعُ العِظام، وأظهرَ الكفرُ أعلامَه وشعارَه، وبُنيَت المساجدُ على القبور، وأُسرِجَت عليها السُّرج، وأُرخِيَت عليها السُّتور، وهتَف أكثرُ النَّاس في الشدَّة بسكَّان القبور، وذبَحوا لها القَرابين ونُذِرَت لها النُّذور، وبُنِيَت الهياكلُ للنُّجوم، وخاطبَها بالحوائج كلُّ مشركٍ ظَلوم، وسرى هذا في

النَّاس، حتَّى فعلَه من يُظَنُّ أنَّه من الأخيار والأكياس، وكثيرٌ منهم يظنُّ أنَّ هذا هو الإسلام، وأنَّه ما جاء به سيِّدُ الأنام، عليه أفضلُ الصَّلاة والسَّلام.

وهل وقعَ ذلك وصار على تطاوُل الدُّهور والأعصار إلَّا بسبب إهمال الرُّؤساء والملوك الَّذين استكبَروا في الأرض، ولم يرفَعوا رأسًا بما جاءت به الأنبياء، وقنِعوا بمجرَّد الاسم والانتساب من غير حقيقة؟! قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾﴾ [غَافر: ٤٧] الآية.

فأهمُّ المهمَّات، وآكَدُ الأُصول والواجبات، النَّظرُ في هذا، وتفقُّدُ الرعيَّة الخاصَّةِ والعامَّة، البادية والحاضرة؛ لأنَّك مسؤولٌ عنهم، والسُّؤال أوَّلًا يقع عن الدِّين قبل الدُّنيا.

وفي الحديث: «كلُّكم راعٍ، وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيَّته»، وفي الصَّحيح: «كانت بنو إسرائيلَ تَسوسُهم الأنبياء، كلَّما هلَك نبيٌّ خلَفَه نبي، وإنَّه لا نبيَّ بعدي، وسيكون بعدي خلفاءُ فيكثُرون» قالوا: فما تأمرنا به؟ قال:

«فُوا ببيعة الأوَّل فالأوَّل، وأعطوهم حقَّهم؛ فإنَّ الله ﷻ سائلُهم عمَّا استرعاهم عليه».

ففتِّش عقائدَهم وانظُر في توحيدهم وإسلامهم، خصوصًا مثل أهل الأحساء والقَطِيف؛ فقد اشتهر عنهم ما لا يَخفاك؛ من الغلوِّ في أهل البيت، ومَسبَّة أصحاب الرَّسول ﷺ، وعدم التِزام كثير من أصول الدِّين وفروعه، وكونهم يُسرُّون ذلك ويُخفونه لا يُسقِط عنك وجوبَ الدَّعوة والتَّعليم، والنُّصح لله بظهور دينِه وإلزامهم به، وتعليم صغارهم وكبارهم؛ فإنَّك مسؤولٌ عن ذلك، والحملُ ثقيل والحسابُ شديد.

وفي "الطَّبرانيِّ" أنَّ عمر بن الخطَّاب استعمَل بِشرَ بن عاصم على صدَقات هَوازن، فتخلَّف بِشرٌ فلقِيَه عمر، فقال: ما خلَّفك؟ أمَا لنا عليك سمعٌ وطاعة؟ قال: بلى، ولكن سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «مَن ولِيَ شيئًا من أمور المسلمين أُتِيَ به يومَ القيامة حتَّى يوقَف على جِسر جهنَّم، فإنْ كان محسنًا نجا، وإن كان مسيئًا انخرق به الجسرُ فهَوى فيه سبعين خريفًا»، فرجع عمرُ كئيبًا حزينًا، جعلَك الله من الذين يَخشَون ربَّهم ويخافون سوء الحساب.

ومن الدَّعوة الواجبة والفريضة اللَّازمةِ جهادُ مَن أبى أن يلتزم التَّوحيدَ ويعرفَه من البادية وغيرهم، وأكثرُ بادية نَجد يكفي فيهم المعلِّم، وأمَّا مَن يليهم من المُشركين مثل الظفير وأمثالهم فيجب جهادُهُم ودعوتهم إلى الله.

وقد أفلح مَن كان لله مَحياه ومَماتُه، وخاف اللهَ في النَّاس، ولم يخَفِ الناسَ في الله، وفي الحديث: «مثَل المجاهد في سبيل الله - والله أعلم بمن يُجاهِد في سبيله - كمثَل الصَّائم القائم، وتوكَّل اللهُ للمجاهد في سبيله بأن يتوفَّاه أن يُدخِله الجنَّة، أو يُرجعَه سالمًا مع أجرٍ أو غنيمة».

وكذلك يَجب على وليِّ الأمر أن يقوم لله على مَن نُسِب عنه طعنٌ وقدحٌ في شيءٍ من دين الله ورسوله، أو على المسلمين في عقائدهم ودينهم، مثل مَن ينهى عن تكفير المشركين، ويجعلُهم من خير أمَّة أُخرِجَت للنَّاس؛ لأنَّهم يدَّعون الإسلامَ ويتكلَّمون بالشَّهادتين.

وهذا الجنس ضَررُهم على الإسلام - خصوصًا على العوامِّ - ضررٌ عظيم، يُخشى منه الفتنة، وأكثرُ النَّاس لا علمَ له بالحُجَج التي تَنفي شبهة المشبِّهين وزيفَ الزَّائفين،

بل تجِدُه - والعياذُ بالله - سَلِسَ القياد لكلِّ مَن قاده أو دعاه، كما قال فيهم أمير المؤمنين عليُّ بن أبي طالب: «لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجَؤوا إلى ركن وثيق، أقرَب شبهًا بهم الأنعامُ السَّارحة».

فإذا تيسَّر إن شاء الله الاهتمامُ والقيامُ بهذا الأصل العظيم يُنظَر بعد هذا في أحوال النَّاس في الصَّلوات الخمس المفروضات؛ فإنَّها من آكَدِ الفروض والواجبات، وفي الحديث: «أوَّل ما تَفقِدون من دينِكم الأمانةُ، وآخِر ما تفقدون الصَّلاة»، وكلُّ شيء ذهَب آخِرُه لم يبقَ منه شيء، وقد قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ۝٥﴾ [البَيِّنَة: ٥].

فيَلزم جعلُ نوَّابٍ يأمُرون بما أمَر الله ورسولُه من إقام الصَّلاة في المساجد في أوقاتها، ويؤدِّبون مَن عُرف عنه كسَل أو إهمالٌ أدبًا يردَع أمثالَه، وعلى أئمَّة المساجد تعليمُ ما يُشترط لها وما يجب فيها من الأعمال والأقوال.

وبعدَ هذا يُلتفت إلى النَّظر في الزَّكاة الشرعيَّة وواجباتها على الوجه الشرعيِّ؛ من الأنعام والثِّمار والنُّقود

والعُروض، ويكون مع كلِّ عامل رجلٌ له معرفة بالحدود الشرعيَّة والأحكام الزَّكويَّة، ويُحذر من الزِّيادة عمَّا شرَعَه الله ورسولُه، فلا يُؤخذ إلَّا ما وجبَت فيه الزَّكاة وتَمَّ نِصابُه وحالَ حَولُه، وكثيرٌ من العمَّال يخرُصون جميع الثِّمار وإن لم تبلغ النِّصاب، وأخذ الزَّكاة من شيء لم يوجبه الله ورسولُه فيه ظلمٌ بيِّن وتعدٍّ ظاهر، حمانا الله وإيَّاكم منه.

وكذلك ما يتبع الزَّكاة من النَّائبة قد أغنى الله عنها، وجعل فيما أحلَّ غِنًى عمَّا منَع وحرَّم، ومن الواجب على وليِّ الأمر تركُ ذلك لله، وفي بيت المال ما يكفي الضَّيف ونحوَه إن حصَل تسديدٌ من الله ومنَّ بتوفيقٍ من عنده، وكذلك ما يؤخَذ من المسلمين في ثغر القَطِيف من الأعشار لا يليق، ولا يجوز التَّعشير في أموال المسلمين.

ويلزَم وليَّ الأمر - أيَّده الله - أن يُلزم التجَّارَ الزَّكاة الشرعيَّة قهرًا، ويدَعَ ما لا يحلُّ، ومن الواجب تمييزُ الأموال الدَّاخلة على وليِّ الأمر؛ فإنَّ الله ميَّزها في كتابه وقسَّمها، فلا يحلُّ تعدِّي ذلك وخلطُها بحيثُ لا يمكن تَمييزُ الزَّكاة من الفَيء والغنائم؛ فإنَّ لهذا مَصرِفًا ولهذا مَصرِفًا.

ويجب على وليِّ الأمر صرفُ كلِّ شيء في محلِّه، وإعطاء كلِّ ذي حقٍّ حقَّه؛ أهل الزَّكاة من الزَّكاة، وأهل الفَيء من الفَيء، ويُعين ذلك على الأوامرُ الَّتي تصدُر من الإمام لوكيل بيت المال.

ويجب تفقُّد مَن في بلاد المسلمين من ذوي القربى، ويُعطَون ما فرض الله ورسولُه من الحقِّ في الفَيء والغنيمة؛ فإنَّ هذا من آكَد الحقوق وألزَمِها؛ لمكانتهم من رسولِ الله ﷺ، والمراد بهم مَن عَرَف التَّوحيد والتزَمه، وأهل الإسلام ما صالوا على من عاداهم إلَّا بسيف النُّبوَّة وسلطانها خصوصًا دولتكم، فإنَّه ما قامت إلَّا بهذا الدِّين، وهذا أمر يعرفه كلُّ عالم.

وفي الحديث: «إنَّ هذا المال حُلوةٌ خَضِرة، فمَن أخذَه بحقِّه بُورِكَ له فيه، ورُبَّ متخوِّض في مال الله بغير حقٍّ ليس له يومَ القيامة إلَّا النَّار»، عافانا الله وإيَّاكم من النَّار وأعمال أهل النَّار.

وكلُّ مَن أخذ ما لا يستحقُّ من الولاة والأمراء والعمَّال فهو غالٌّ، كما في "الصَّحيحين" عن أبي هُريرة قال: قام فينا رسولُ الله ﷺ فذكر الغُلول، فعظَّمه وعظَّم

أمرَه، حتَّى قال: «لا أُلفِيَنَّ أحدَكم يَجيءُ يوم القيامة على رقبته بعيرٌ له رُغاء، فيقول: يا رسول الله، أغِثني! فأقول: لا أملِكُ لك شيئًا، قد بلَّغتُك، لا أُلفِيَنَّ أحدَكم يجيء يوم القيامة على رقبته فرسٌ لها حَمْحَمةٌ، فيقول: يا رسول الله، أغثني! فأقول: لا أملك لك شيئًا، قد بلَّغتُك، لا أُلفِيَنَّ أحدَكم يجيء يوم القيامة على رقبته شاةٌ لها يُعارٌ، فيقول: يا رسول الله، أغثني! فأقول: لا أملك لك شيئًا، قد بلَّغتُك، لا أُلفِيَنَّ أحدَكم يَجيء يوم القيامة على رقبتِه نَفْسٌ لها صِياح، فيقول: يا رسول الله، أغثني! فأقول: لا أملك لك شيئًا، قد بلَّغتُك، لا أُلفِيَنَّ أحدَكم يجيء يوم القيامة على رقبتِه رِقاعٌ تَخفِق، فيقول: يا رسولَ الله، أغثني! فأقول: لا أملك لك شيئًا، قد بلَّغتُك، لا ألفينَّ أحدَكم يَجيء يوم القيامة وعلى رقبته صامتٌ، فيقول: يا رسول الله، أغثني! فأقول: لا أملك لك شيئًا، قد بلَّغتُك».

وأخبَر ﷺ أنَّ هدايا العُمَّال غُلول، فقال: «هدايا العمَّال غُلول»؛ فيَنبغي التَّفطُّن لهذه الأمور؛ لئلَّا يقع فيها وهو لا يَدري.

وكذلك ينبغي تفقُّد أمر النَّاس في الحجِّ، والقيام على مَن تركَه وهو يستطيعُه، وهو ركنٌ من أركان الإسلام، ويُذكَر عن عمر رضي الله عنه أنَّه قال: «هممتُ أن أضع الجِزيةَ على مَن تركَ الحجَّ»، وبعض السَّلف يكفِّر مَن تركَه، وأمرُ الرعيَّة بذلك من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكَر الذي لا يسَع تركُه.

وكذلك القيام على النَّاس ومنعُهم من التعدِّي في الدِّماء والأموال وقطع السُّبل، وهذا من الفساد في الأرض والمحاربة لله ورسولِه، فإن لم ينتَهوا إلَّا بغَزوهم لزمَ الإمامَ أن يبعثَ السَّرايا لحربِهم؛ ولمَّا تعرَّض الفُجاءةُ السُّلَميُّ للنَّاس؛ يأخذ ويقتُل من مسلم وكافر - بعثَ أبو بكر الصدِّيقُ جيشًا فظفِروا به فأحرقَه بالنَّار.

ويُذكَر عن حسَّانَ أنَّه قال:

وما الدِّينُ إلَّا أنْ تُقامَ شَريعةٌ
وتَأمَنَ سُبْلٌ بينَنا وشِعابُ

وكذلك ما حدث من الدفنان للبادية؛ إذ أخَذوا المسلمين وقتَلوا؛ لما فيه من تَركِ حقوق المسلمين في الدِّماء والأموال، مع القُدرة على استيفائه، والقيام بالعدل

الذي أمر الله به ورسولُه؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ٥٨﴾ [النِّسَاء: ٥٨].

فتأمَّل هذه الموعظةَ وما ختمَها الله به من هذين الوصفَين العظيمين، وقد قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ٦٥﴾ [النِّسَاء: ٦٥].

فالواجب على مَن نصَحَ نفسَه ألَّا يَحكُم إلَّا بحُكم الله ورسوله، فإن لم يفعَل وقَع في خطرٍ عظيم من تقديم الآراء والأهواء على شِرْعة الله ورسوله.

قال العلَّامةُ ابنُ القيِّم رحمه الله تعالى:

واللهِ ما خَوْفي الذُّنوبَ فإنَّها
لَعَلى طَريقِ العَفوِ والغُفرانِ
لَكنَّما أخشى انسِلاخَ القَلبِ مِنْ
تَحكِيمِ هذا الوَحيِ والقُرآنِ
ورِضًا بِآراءِ الرِّجالِ وخَرصِها
لا كانَ ذاكَ بِمِنَّةِ الرَّحمنِ

ومِمَّا يجب على وليِّ الأمر تفقُّدُ النَّاس عن الوقوع

فيما نهى الله عنه ورسولُه من الفواحش ما ظهَر منها وما بطَن؛ بإزالة أسبابها، وكذلك بَخْس الكَيل والميزان والرِّبا، فيَجعل في ذلك مَن يقوم به ممَّن له غَيْرةٌ على دين الله وأمانة، وكذلك مُخالطة الرِّجال للنِّساء، وكفُّ النِّساء عن الخروج، إذا كانت المرأة تَجِد مَن يقضي حاجتَها من زَوج أو قريب أو غير ذلك.

وكذلك تفقُّد أطراف البلاد في صَلاتِهم وغير ذلك، مثل أهل النَّخيل النَّائية؛ لأنَّه ربَّما يقع فيهم فسادٌ ما يُدرى عنه، وأكثر النَّاس ما يُبالي ولو فعَل ما نُهي عنه.

وفي الحديث: «ما تركَتُ فتنةً أضرَّ على الرِّجال من النِّساء»، وفي الحديث أيضًا: «ما ظهرَتِ الفاحشةُ في قوم إلَّا ابتُلوا بالطَّواعين والأمراض التي لم تكن في أسلافِهم»، نعوذ بالله من عقوبات المعاصي، ونسألُه العفوَ والعافية في الدُّنيا والآخرة.

وكذلك التوسُّع في لُبس الحرير وما زاد على المباح، وهو ما نَهى الله عنه، ونهى عنه الرَّسول ﷺ ونصَّ على تحريمه، ولا يَجوز تتبُّع الرُّخص.

ومن الأصول التي تدور عليها الأحكام دائمًا:

«الأعمال بالنيَّات»، وحديث: «مَن أحدَث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رَدٌّ»، وحديث: «إنَّ الحلالَ بيِّن والحرام بيِّن، وبينَهما أمورٌ مشتَبهات لا يعلمُها كثيرٌ من النَّاس، فمَن اتَّقى الشُّبهات فقد استبرأ لدينِه وعِرضه، ومَن وقعَ في الشُّبهات وقعَ في الحرام، كالرَّاعي يرعَى حول الحِمى يوشِك أن يقعَ فيه، ألا وإنَّ لكلِّ ملكٍ حِمًى، ألا وإنَّ حِمى الله محارمُه».

فكلُّ أمرٍ ينبغي لذوي العُقول أن يَتركوا ما تشابهَ منه، ممَّا يقع فيه خلافٌ من بعض العلماء، فلا ينبغي أن يُرخِّص لنفسِه في أمرٍ قد ظهرَت فيه أدلَّةُ التَّحريم، فاجتنابُه من تقوى الله تعالى وخوفِه، وتركُه مخافةَ الله من الأعمال الصَّالحة التي تكتب له حسنات.

وممَّا يجب النَّهي عنه: الإسبال؛ كما نهى عنه رسولُ الله ﷺ كما في الحديث الصَّحيح: «ما أسفلَ من الكَعبَينِ فهو في النَّار».

وفي الحديث: «بينما رجُل يجرُّ إزارَه خُيلاء أمَرَ الله الأرض أن تأخذَه، فهو يتجَلجلُ فيها إلى يوم القيامة».

وكذلك التشبُّه باليهود والمَجوس في ترك الشَّوارب، وقد

أمَر النبيُّ ﷺ بإحفائها مخالفةً لليهود والمجوس، فقال ﷺ: «أحفوا الشَّوارب وأعفوا اللِّحى؛ خالِفوا اليهود»، والذي فيه دينٌ ورَغبة في الخير ما يرضى لنفسه أن يخالفَ ما أمر به الله ورسولُه، ويقتدي باليهود والمجوس والمتكبِّرين.

وكلُّ ما أمر الله به ورسولُه فينبغي للعبد أن يمتثِل ويسمَع ويُطيع؛ لما في ذلك من المنافع الكثيرة، وما في خلافه من الإثم، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب: ٣٦]، فعلى الإمام أن يأمر النُّوَّاب بأمرِ مَن رأَوه تاركًا للأمر أن يَقوموا عليه ويُلزِموه الطَّاعة؛ حتَّى تظهَر طاعةُ الله ورسولِه في المسلمين، ويَمتازون بذلك عمَّن خالفهم في الدِّين من أهل الجَفاء والغفلة والإعراض، نسأل الله العفوَ والعافية، فإنَّها قد عمَّت البلوى بهذا بكثير؛ لما قام بقلوبهم من ضَعف الإيمان وعدم الرَّغبة فيه.

وكذلك يجب على الإمام النَّظرُ في أمر العلم وترغيبُ النَّاس في طَلبه وإعانةُ من تصدَّى للطَّلب؛ لقلَّة العلم وكثرة الجهل، وإن كان قد قام ببعض الواجب فينبغي له أن يهتمَّ

بهذا؛ لفضيلة العلم وكَثرَة ثواب مَن قام به وأعان عليه، فإنَّ أكثر مَن يطلب العلمَ فقراءُ ومحتاجون إلى الإعانة على فقرهم لما يكون لهم فيه سعَة.

وطلَبُ العلم اليوم مِن أفرَض الفرائض، كما لا يخفى على الإمام وغيره، وفي الحديث: «الدُّنيا ملعونةٌ ملعونٌ ما فيها، إلَّا ذِكرَ الله، وما والاه، وعالمًا ومتعلِّمًا».

وهذا ما يحصل إلَّا باعتناء الإمام وتألُّفه للطُّلَّاب، فإذا كَثُر العلم وقلَّ الجهل حصَل بسببه من الخير والحسنات ما لا يُحصيه إلَّا الله إن قَبِله.

وبالغفلة عن طلب العلم تضعُف هِممُهم ويقلُّ طلبُهم، وفي مناقب عُمر بن عبد العزيز - رحمه الله تعالى - أنَّه إذا أراد أن يُحييَ سُنَّة أخرج من العطاء مالًا كثيرًا، فإذا نفروا من هذا رَغِبوا في هذا، فلله دَرُّه! وما أحسَنَ نظرَه لنفسه ولمن ولَّاه الله عليهم!

وهذا الَّذي ذكَرنا من الأمور البيِّنة التي ينبغي التَّنبيهُ عليها بخصوصها، وأمَّا الأمور التي بين الله وبين العبد، التي فيها صلاحُ القلوب، ومغفرةُ الذُّنوب، من إتعاب النَّفس فيما يحبُّه الله ويرضاه، ممَّا يقع له وعليه - فهذا

الباب واسع، ولا يدرِك هذا إلَّا مَن جعل الله له الرَّغبةَ في كتابِه، ومعرفة صفة أهل الإيمان والتَّقوى الذين أعدَّ الله لهم الجنَّة، ويجاهد نفسه على ذلك فعلًا وتركًا.

وعلى كلِّ مَن نصَح نفسَه أن يَحذَر من كبائر الذُّنوب التي هي من أعظم الذُّنوب، ولا يأمَنَ مَكرَ الله، وليكُن لنفسِه أشدَّ مقتًا منه لغيره، وليكن معظِّمًا للأمر والنَّهي، مفكِّرًا فيما يحبُّه الله ويرضاه، متدبِّرًا لكتابه؛ مَحبَّةً لربِّه، ورغبةً في ثوابه، وخوفًا من غضبه وعقابه.

ومن الواجب على كلِّ أحد أن يُحِبَّ في الله ويُبغِضَ في الله، ويُعاديَ في الله ويُواليَ في الله، ويحبَّ أولياء الله وأهل طاعته، ويعاديَ أعداءه وأهل معصيته.

﴿وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ٨٨﴾ [هُود: ٨٨].

وصلَّى الله على محمَّد وآله وصحبه وسلَّم[1].

(١) "الدُّرر السنيَّه، في الأجوبة النجديَّه".

نصيحة ثانية
من الشَّيخ
عبد الرَّحمن بن حسن إلى الإمام فيصل

كتب الشَّيخ عبد الرَّحمن بن حسَن إلى الإمام فَيصل ابن تُركي:

بسم الله الرَّحمن الرحيم

من عبد الرَّحمن بن حسَن إلى الأخ المكرَّم فيصل بن تركي، سلَّمَه الله تعالى، آمين.

سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد:

لا يخفاك أنَّ حقَّك عليَّ كبير، وأكبَرُ منه حقُّ الله تعالى عليَّ وعليك، ويجب عليَّ النُّصحُ لك وللمسلمين باطنًا وظاهرًا، وأنت - بارك الله فيك - أحسنتَ أحسَنَ الله إليك، ولا لكَ مكافأة إلَّا بالدُّعاء والنُّصح باطنًا وظاهرًا، وأنتَ اليوم حاجتُك إلى العلم ضرورةٌ في خاصَّة نفسك وفيما ابتُليتَ به من أمور الخَلق، والعلم بالنَّظر إلى أحوال النَّاس ما بَقيَ معهم إلَّا رَسمُه؛ كما قال عبد العزيز بن الماجِشُون، وهو من أكابر عُلماء القرن الثَّاني: «قد -

واللهِ - عزَّ المسلمون الذين يَعرفون المعروفَ وبمعرفتِهم يُعرَف، ويُنكِرون المنكرَ وبإنكارهم يُنكَر».

فإذا كان هذا حالَ القَرن الثَّاني فما ظنُّك بأهل هذه القرون، التي عاد المعروفُ فيهم منكَرًا والمنكَرُ معروفًا؟! نشَأ على هذا الصَّغير، وهَرِمَ عليه الكبير، والبِدَعُ فشَتْ فيمَن يدَّعي العلم حتَّى اعتقَدوا في ربِّهم وخالقِهم ما يتقدَّس عنه ويتعالَى، سبحان الله عمَّا يصِفون.

وهذا في حقِّ مَن عرَفه إذا كان حازمًا ناصحًا لنفسِه استَيقظ في طلب ما يُنجيه ويُسعده في دُنياه وأُخراه من العلم النَّافع والعمَل الصَّالح، ويكون مبنى أقواله وأفعاله على الإخلاص والمُتابعة على علم ومعرفة ويقين.

فمَبنى العبادة على محبَّة المعبود غايةَ المَحبَّة في غاية الذُّلِّ والخُضوع، كما قال ابنُ القيِّم:

وعِبادةُ الرَّحمنِ غايةُ حُبِّهِ
مَعَ ذُلِّ عابدِه هُما قُطْبانِ
وعَليهِما فَلَكُ العِبادَةِ دائرٌ
ما دارَ حتَّى قامتِ القُطْبانِ
ومَدارُه بِالأمرِ أمرِ رَسولِهِ
لا بالهَوى والنَّفسِ والشَّيطانِ

فالمُحبُّ له قلبُه يَخشَع، وعينُه تدمَع، يُحاسِب نفسَه بالإخلاص والمتابعةِ لرسولِه ﷺ، يفعل ما أمَر به، ويَترك ما نهى عنه، وهذا دليلُ المحبَّة؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عِمرَان: ٣١]، وهذا هو الصِّراط المستقيم لا يعرفه السَّالك ولا يهتدي إليه إلَّا بالكتاب والسنَّة؛ عِلمًا وعَملًا، ومَحبَّة وطلبًا.

كما في حديث عبد الله بن عمرو عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «لا يُؤمنُ أحدُكم حتَّى يكون هواهُ تَبعًا لما جئتُ به»، وهذا لا يُدرَك إلَّا بالعلم النَّافع، والعلم النَّافع لا يُدرَك إلَّا بالدُّخول من باب التَّواضع والاعتراف بالجهل والتَّفريط، وقد كان أمير المؤمنين عُمر بن الخطَّاب رضي الله عنه يَستعين على ما حُمِّل من أمور الناس بقُرب أهل العلم وتَقريبهم إليه، وكان يقرِّب ابنَ عبَّاس على صِغَر سنِّه؛ لعِلمِه بالتَّأويل، وقد كان وقَّافًا عند كتاب الله تعالى.

ومِن سَعادة العبد أن يتَّخِذ له إخوانَ صِدقٍ ممَّن له علمٌ ودين، يُذكِّرونه إذا نسي، ويُعينونه إذا ذكَر، كما قال بعض السَّلف: عليك بإخوان الصِّدق تَعِش في أكنافهم - يعني بالعلم النَّافع والعمل الصَّالح - فإنَّهم زينةٌ في

الرَّخاء، عُدَّةٌ في البلاء، يأنَس بهم أصحابُهم في هذه الدَّار، وفي القبور، ويوم البعث والنُّشور، وهم الحجَّة بين يدَي الله تعالى حالَ العَرض على الله، وهم الذين قرنَ الله تَولِّيَهم بتولِّيه وتَولِّي رسوله؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المَائدة: ٥٥-٥٦].

وهذه أمورٌ متلازمة؛ لا يكون الله تعالى وليًّا لعبد حتَّى يكون الرَّسولُ له وليًّا، ويكونَ المؤمنون هم أولياءَه دون كلِّ مَن عداهم.

وقد وصَّى الله تعالى نبيَّه بالصَّبر معهم فقال: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف: ٢٨].

ولهذا كان الحبُّ في الله والبُغض في الله أوثقَ عُرى الإيمان؛ لما في الحديث الصَّحيح: «أوثَقُ عُرى الإيمان الحبُّ في الله والبُغْضُ في الله»، وفي الحديث الآخر: «مَن أحبَّ في الله وأبغضَ في الله ووالى في الله وعادى

في الله، فإنَّما تُنال وَلاية الله بذلك، ولن يجد عبدٌ طعمَ الإيمان وإن كثُرَت صلاتُه وصومُه حتَّى يكون كذلك».

وهم الذين وصَّى الله نبيَّه ﷺ بأن يقول لهم إذا جاؤوه: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۖ أَنَّهُۥ مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥٤﴾ [الأنعَام: ٥٤]؛ بشَّرهم عن ربِّهم بالمغفرة من ذنوبهم إذا تابوا إليه وأنابوا.

ووصَّاه بهم في قوله: ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ﴾ [آل عِمرَان: ١٥٩]، وبه تتمُّ مَصالح الدُّنيا والدِّين.

وقال: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢١٥﴾ [الشُّعَرَاء: ٢١٥]، وفي العلم بما وصَّى الله به نبيَّه من ذلك صلاحُ أمر الدُّنيا والآخرة.

فارغب - وفَّقك الله - فيما رغَّب الله به نبيَّه ﷺ فيه، وأنت اليوم تَستعين بكلِّ صانع في صنعتِه التي يُحسِن، وتدوِّر الطيِّب من السِّلع، والطيِّب من العلم والإيمان.

والدِّين أنت له أحوَجُ من جَميع ما تحتاجُ إليه، واختَر لنفسك مَن تستعين به على طاعة الله، وبراءة ذمَّتك بالعمل المشروع في الدَّقيق والجليل؛ حتَّى تَسلَم وتغنَم.

وقد رُؤي عمرُ بن الخطَّاب رضي الله عنه بعد موتِه، فقال له الرَّائي: ما فعَل الله بك؟ قال: «كادَ عَرشي ليَنهدُّ لولا أنِّي لقِيتُ غَفورًا رحيمًا!».

فاحرص على العلم وأهل العلم، واجعل بالَك لهذه الآيـــــة: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المَائدة: ٥٦].

فلا غلَبةَ إلَّا بهذا السَّبب العظيم الذي مَن انتظمَت له هذه الثَّلاثة، غلَب على مَن ناوأه وعاداه من قريب أو بعيد؛ لأنَّه صار مع حزب الله بمحبَّته لهم وقُربِه منهم ودُنوِّهم منه، وإكرامهم والتَّواضع لهم بخفض الجَناح، وغير ذلك ممَّا يجب لهم من الحقوق التي تَجب لهم دون غيرهم، واطلُبهم ولو في أطراف البلاد، واطلُب ما عندهم ممَّا يُعينك على هذا السَّفر؛ فإنَّ العبد في هذه الدُّنيا مُسافرٌ مُحتاج إلى أخذ الزَّاد والمَزاد للمَعاد، ولا حول ولا قوَّة إلَّا بالله.

وصلَّى الله على محمَّد، ١٢٨١[1].

(١) "الدُّرر السنيَّه، في الأجوبة النجديَّه".

الشيخ سعد بن عَتيق والإمام عبد العزيز بن عبد الرَّحمن الفيصل

وكتَب الشَّيخ سعدُ بن حمَد بن عَتيق إلى الإمام الملك عبد العزيز بن عبد الرَّحمن الفيصل:

بسم الله الرحمن الرحيم

من سَعدِ بن حمَد بن عَتيق إلى الإمام المكرَّم عبد العزيز بن عبد الرَّحمن آل فَيصل، سلَّمه الله تعالى وهداه، وجعله ممَّن اتَّبع هُداه.

سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاته.

وبعدُ، أُوصيك ونفسي بتقوى الله تعالى؛ فإنَّها وصيَّة الله لعباده؛ قال تعالى: ﴿يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾﴾ [الزُّمَر: ١٦].

والتَّقوى كلمةٌ جامعة يَدخُل فيها فعلُ جميع الطَّاعات واجتنابُ المحرَّمات، ومن أعظم ذلك الحِرص على إقامة دين الله تعالى، وحَملُ الرَّعيَّة على العمَل بدِينه وشَرعه الذي شرَعه لعباده، وتعبَّدهم بالقيام به وخلقَهم من أجله،

وهو دين الإسلام، وهو شهادة أن لا إله إلَّا الله وأنَّ محمَّدًا رسولُ الله، وإقام الصَّلاة، وإيتاء الزَّكاة، وصوم رمضان، وحجُّ البيت الحرام.

وهذه أركانُ الإسلام ومبانيه التي بُنِيَ عليها؛ كما أخبَر بذلك نبيُّنا محمَّد ﷺ في الحديث الصَّحيح.

وأعظم ذلك: معنى شهادة أن لا إلهَ إلَّا الله، وهو إخلاص العبادة لله تعالى واجتِناب الشِّرك في العبادة؛ مثل: دعاء القُبور، والاستِمداد من الأموات، وسؤالهم الحاجات وتَفريجَ الكُربات، وما يَؤول إلى ذلك ويُفضي إليه؛ من بناء المساجد عند القُبور، والصَّلاة عندها، وقَصدها للدُّعاء، وغير ذلك من ذَرائع الشِّرك ووسائله؛ كالحَلِف بغير الله، وقول الرَّجل: وحَياةِ فلان، وقول الرَّجل: لولا الله وفلانٌ، وقول الرَّجل: ما شاءَ الله وشِئتَ، وما أشبهَ ذلك من الألفاظ التي يَجعل قائلُها المخلوقَ نِدًّا لله تعالى.

ولمَّا قال رجُلٌ للنبيِّ ﷺ: ما شاءَ اللهُ وشئتَ، قال: «أجعَلتَني لله نِدًّا؟! ما شاءَ اللهُ وحدَه».

ومِن أعظَم ما أمرَ الله به: الصَّلاة؛ فإنَّ الله تعالى

افترضَها على عبادِه، وجعلَها أحدَ أركان الإسلام؛ فيجب المسارعةُ في إقامتها، والاجتماعُ لها في المساجد، والنهيُ عن التخلُّف عنها.

فعليكم بالاهتمام بهذه الأصول، وحمل الرعيَّة على القيام بها على الوجه المطلوب، والأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر؛ فإنَّ ذلك من واجبات الدِّين.

وقد وقعَ من كثيرٍ من الناس الإخلالُ بالصَّلاة، والتهاونُ بها، وعدَمُ الاجتماع لها جُمعةً وجماعة، وأعظمُ مَن بلغَنا عنهم الإخلالُ بالصَّلاة وعدمُ الاجتماع لها في المساجد: أهلُ جهة الحجاز؛ فعِندهم من ذلك ما يَفوق الوَصف.

كما وقعَ من كثيرٍ منهم الإخلالُ بالزَّكاة، وعدمُ اعتبار ما أمرَ الله ورسولُه باعتباره، من ذلك: عدمُ مراعاة نِصاب الزَّكاة وأخذُهم من القليل والكثير، وعدمُ الالتِفات إلى الحدود الشَّرعيَّة فيما تجب فيه الزَّكاةُ من الحُبوب والثِّمار والمواشي، وهذا من الإعراض عمَّا أوجب الله على عباده من العمل بالشَّريعة المحمديَّة.

ولا شكَّ أنَّ الذي يأخذ شيئًا من المال الذي لا يبلغ

النِّصاب ويسمِّيه زكاة، ويدَّعي أنَّه هو الزَّكاة التي أمَر الله بها عبادَه وافترضها عليهم - أنَّ فِعل هذا من الجنايات على الشَّريعة والتَّغيير لدين الله، وشرع دين لم يأذَن به الله، وهذا ما يجب عليكم الاهتمامُ به، وتحذير العمَّال وأمراءِ البُلدان من خَرْص شيءٍ لم يَبلغ النِّصاب؛ فإنَّ ذلك من المنكر الذي يجب إنكارُه.

ومن أعظم المنكَرات: اختِلاط الرِّجال بالنِّساء في البيوت والمجالس والأسواق، وخروجُ النِّساء بالزِّينة في الأسواق، والمعاملاتُ الرِّبويَّة، والكذب في البَيع والتَّطفيف في المكيال والميزان، والظُّلم لعباد الله، والعُدوان عليهم في دمائهم وأموالهم وأعراضهم.

وينبغي أن نذكُرَ في هذه الورقة مقاديرَ ما تجب فيه الزَّكاة من الحُبوب والثِّمار والمواشي، ومقدارَ ما يُؤخَذ زكاةً من الأموال المذكورة.

فأمَّا الإبل فلا زكاةَ فيها حتَّى تبلغَ خمسًا، فإذا بلغَت خمسًا ففيها شاة، وفي العَشْر شاتان، وفي خَمسَ عشْرةَ ثلاثُ شِياه، وفي العشرين أربعُ شِياه، فإذا بلغَت خمسًا وعشرين ففيها بنتُ مَخاض لها سَنة، فإذا بلغت ستًّا

وثلاثين، ففيها بنتُ لَبُون لها سنتان، فإذا بلغَت سِتًّا وأربعين ففيها حِقَّة لها ثلاثُ سنين، فإذا بلغَت إحدى وستِّين ففيها جَذَعَة لها أربعُ سنين، فإذا بلغَت ستًّا وسبعين ففيها بنتَا لَبُون، فإذا بلغَت إحدى وتِسعين ففيها حِقَّتان، فإذا زادَت على العشرين ومِئةٍ واحدةً ففيها ثلاثُ بناتِ لَبُون، ثمَّ في كلِّ أربعين بنتُ لَبُون، وفي كلِّ خمسين حِقَّة.

وأمَّا البقر فلا زكاةَ فيها حتَّى تبلُغَ ثلاثين، فإذا بلغَت ثلاثين ففيها تَبِيعٌ له سَنة، وفي أربعين مُسِنَّة لها سنتان، ثمَّ في كلِّ ثلاثين تَبِيعٌ، وفي كلِّ أربعين مُسِنَّة.

وأمَّا الغنَم فلا زكاةَ عليها حتَّى تبلُغَ الأربعين، فإذا بلغَت أربعين ففيها شاة، فإذا زادت على مئةٍ وعشرين واحدةً ففيها شاتان، فإذا زادت على مِئتَين واحدةً ففيها ثلاثُ شِياه، ثم في كلِّ مئةٍ شاة.

وأمَّا الحبوب فالنِّصاب منها مئتان وسبعون صاعًا؛ بالصَّاع المعروف في بُلدان نَجدٍ اليوم.

وأمَّا التَّمر فالنِّصاب منه أربعُمئةِ وَزنةٍ؛ بالوَزنةِ المعروفة في نجدٍ اليوم.

وأمَّا القدرُ الذي تَجب زكاتُه، فما سُقيَ بلا مؤونة كالذي يُسقى بالسُّيول والأمطار والثَّلج، فيجب فيه العُشر، والذي يُسقى بالسَّواني ونحوِها ففيه نِصفُ العُشر.

وصلَّى الله على محمَّد[1].

(١) "الدُّرر السنيَّه، في الأجوبة النجديَّه".

سعيد النُّورْسي يهاجم الماسونيَّةَ في المحكمة

في كتاب "الماسونيَّة بلا قناع" (ص٥٤-٥٦) بعنوان: من جرائم الماسونيَّة في تركيا:

كنتُ أقلِّب بعض أعداد مجلَّة "حضارة الإسلام" الدِّمشقيَّة، فلفَت نظري موضوعٌ بعنوان "سعيد النُّوْرسي أُعجوبة الثَّورة الإسلاميَّة في تركيا، والملقَّب بـ (بديع الزَّمان)"، بقلم الأستاذ محمَّد سعيد رمضان البُوطي، العددان الثَّالث والرَّابع من السَّنة الثالثة ١٩٦٢م، أعدتُّ قراءة المقال، فوجدتُّ في تضاعيفِه ما يلي:

«إنَّ سعيد النورسي (بديع الزَّمان) هو المجدِّد الذي أكرَم الله به المسلمين في تركيا إبَّان حكم كمال أتاتورك؛ فقد كان رمزَ الحَرب الإسلاميَّة لحُنكَتِه، وكان المِحورَ الذي استقطَب حولَه ملايينَ الشَّباب المسلمين للصُّمود في وجهه، ولقد مات كمال أتاتورك وأتباعُ بديع الزَّمان يَكثُرون ويَزيدون».

ذكَر الكاتب تاريخ حياة هذا المجاهد ودراسته

ومظاهِر الشَّجاعة عنده، وإصراره على أن يكرِّس حياتَه لخدمة القُرآن، وتأسيسَه مدرسةَ الزَّهراء التي تُضاهي الأزهر، وقال: حينما ظهرَت في ١٩٠٨م حريَّة محمَّد رشاد وجمعيَّة الاتِّحاد والتَّرقِّي، التي كانت تتقنَّع بالدِّين ظاهرًا، وتُخفي رجسَ الماسونيَّة واليهوديَّة باطنًا - بادرَ بديع الزَّمان فألَّف جمعيَّة إسلاميَّة باسم "الاتِّحاد المحمَّدي" سرعان ما انضمَّ إليه آلاف النَّاس.

لقد أثار عملُ بديع الزَّمان هذا مخاوفَ الماسونيِّين الَّذين كانوا من وراء الحَركة الاتِّحاديَّة؛ فأرسَلوا رئيسَ محفلِهم الثَّريَّ اليهوديَّ الكبير قرصو لمقابلتِه، ولكنَّه ما لبِث أن خرَج مِن عنده قائلًا لرفاقه: لقد كاد هذا الرَّجُل العجيبُ أن يزُجَّني في الإسلام بحديثه!

وقرصو هذا أوَّل صِهيَوني ماسوني عمل على قَلب الخلافة العُثمانيَّة، وخلعِ السُّلطان عبد الحميد، واستِلاب فلسطين، والمذكور من أولئك اليهود المعروفين باسم الدونمة.

ولم يَجد الاتِّحاديُّون بُدًّا من إلقاء القبض على بديع الزَّمان في حادثة ٣ آذار ١٩٠٩ التي أُعدم فيها ١٥

مسلمًا، وكان الغرضُ من ذلك تخويفَه، ولكنَّه كان أقوى من الخوف، وقال بديعُ الزَّمان للمحكمة: وكانت جريمتي الأولى أنَّني تصدَّيت للرَّدِّ على دُعاة الماسونيَّةِ والإلحادِ من أصحاب الصُّحف.

وكان موقفُ بديع الزَّمان أشدَّ ما يكون صلابةً مع كمال أتاتورك؛ فقد استَطاع أن يؤثِّر على نوَّابه وجعَلَهم يصلُّون!

وقال لكمال: إنَّ أعظم حقيقةٍ تتجلَّى بعد الإسلام إنَّما هي الصَّلاة، إنَّ الذي لا يصلِّي خائن.

وقد ألَّفَ بديعُ الزَّمان مجموعةً من الرَّسائل تتألَّف من ١٣٥ رسالة، تتَناول جَميعُها الجواب على مختلِف المشكِلات الرُّوحيَّة والنفسيَّة والعقليَّة، وهي تنطلِق من مِحور القرآن وتفسيره، وكان يُلقي أفكارَه على تلاميذِه الذين سرعان ما يَطبَعونها بحماس ثمَّ يوزِّعونها، وقد أخذَ كلُّ فردٍ على نفسه كتابةَ ما يُمكنه من النُّسَخ عن كلِّ رسالة تَظهر، فإذا وزَّعَها على القُرَّاء كان على كلِّ هؤلاء أيضًا أن يقوم بنفس الوظيفة، وهكذا تتكاثر هذه الرَّسائل في الأيدي عن طريق التَّوالُد المُطَّرِد.

وشعرَ مصطفى كمال بالزِّلزال يَسري في كيان حكومته، وأذهلَه ما تفعَلُه هذه الرَّسائل؛ فعقَد اجتماعًا سريًّا دعا إليه كبارَ رجال الماسونيَّة، الذين ساهموا مساهمة فعَّالة في تقويض الخلافة الإسلاميَّة، وبناء الحكومة العلمانيَّة (اللادينيَّة) على أنقاضِها، وانتهى الاجتماعُ باتِّفاقهم على إحالة بديع الزَّمان مرَّة أخرى للمُحاكَمة.

وسرعان ما تألَّفَت لجنةٌ من هؤلاء الماسونيَّة أنفسِهم للتَّحقيق في رسائل بديع الزَّمان، وبرَّأَت المحكمةُ ساحتَه.

وقد انتَشَر بيانُه الَّذي ألقاه في المحكمة انتشارَ البرق، وقد جاء فيه: بأيِّ وجهٍ تَستطيعون إيقافَ (حركة النُّور)؟! وإنَّما هي عبارة عن خدمة حقائق القرآن، والقُرآن حقيقةٌ مرتبطةٌ بعَرش الله العظيم.

وأخيرًا ضيَّق الحاكمون الخِنَاقَ على سعيد النورسي، وزَجُّوا به في زنزانة لا تتَّسع لأكثرَ من فِراشٍ صغيرٍ قذر، على أرضٍ رطبةٍ عفنةٍ باردة.

أمَّا طعامهُ فلم يكن أكثرَ من قدر ماء وكِسرة خبز يابسة مرَّتين في اليوم.

ومع ذلك فقد دسَّت له السُّلطات في إحدى الوجبات سُمًّا ناجعًا للتخلُّص منه، ولكن أعاجيب لطف الله خيَّبت آمالهم في ذلك.

وفي ليلة القَدْر ٢٧ رمضان ١٣٧٩هـ انتقلَت هذه الرُّوح الطيِّبة إلى ربِّها تشكو ظلم وغدر الماسون العثمانيِّين.

العزُّ بن عبد السَّلام القَطَري

يوجِّه رسالةً إلى الحاكم السَّابق في قطَر

نشرَت بعضُ الصُّحف في منطقة الخليج العربيِّ مؤخَّرًا نَصَّ خُطبة الجمعة التي ألقاها فضيلةُ الشَّيخ عبد الله بن زيد آل محمود، رئيس المحاكم الشرعيَّة في قطر، وندَّد فيها بالحاكم السَّابق الشيخ أحمد بن علي آل ثاني.

وقد أثارت هذه الخُطبة لَغوًا كبيرًا وتساؤلاتٍ عدَّةً، ولا سيَّما وأنَّ رئيس المحاكم الشرعيَّة يكون في البلاد الإسلاميَّة عادةً مرتبطًا بأمير البلاد أو حاكمِها، ويتوجَّب عليه نصحُه؛ لما فيه خير الشَّعب وصلاح نفسه، قبل استفحال الأمر وانتهائه إلى الهاوية.

ولكن هذا اللَّغو ما لبِث أن هدَأ وانقلَب إلى إعجابٍ كبيرٍ بفضيلة الشيخ عبد الله بن زيد، وبجُرأته التي تذكِّر بجرأة المصلِحين الأوائل، عندما نُشرَت وثيقة سرِّيَّة للمرَّة الأولى؛ وهي كناية عن رسالة كان قد وجَّهها فضيلة الشَّيخ عبد الله إلى الحاكم السَّابق في أعقاب غرَق الباخرة

(الريَّان) في مطلع شهر كانون الثَّاني الماضي، والذي ذهبَ ضحيَّتَه أربعون مواطنًا قَطريًّا من خَدَم وأعوان الحاكم السَّابق.

وكَثُرَ اللَّغطُ يومَها في مجالس الدَّوحة وأوساط المواطنين الغَيورين على مَصالح البلاد وسُمعتِها حول مسبِّبات هذا الحادث المفجِع، وتناولَت الألسنةُ الحاكم السَّابق بالنَّقد؛ لتَسبُّبِه في هذه الكارثة الوطنيَّة.

وقد رأَت "الخواطرُ" نشرَ نصِّ رسالة فضيلة الشَّيخ عبد الله إلى الحاكم السَّابق باعتبارها وثيقةً تاريخيَّة صادرة عن أهمِّ مرجع دينيٍّ في قطر، وباعتبارها تعبيرًا عن النِّقمة التي شمِلَت كافَّة الأوساط ضدَّ مظاهر البَذخ والاستِهتار والتَّفريط في المسؤوليَّة، التي تميَّز بها العهدُ السَّابق في الإمارة الشَّقيقة، وهي المظاهر التي حسمَتها الحركةُ الإصلاحيَّة التي قادها سموُّ الشَّيخ خليفة بن حمد آل ثاني.

تقول الرِّسالة:

«بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة سموِّ الأمير الشَّيخ أحمد بن عليٍّ العبد الله الثاني، حفظه الله.

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وبعد:

فإنَّ من لوازم المحبَّة الدينيَّة التقدُّمَ إليكم بالنَّصيحة الودِّية؛ فقد أخذ الله العهد علينا بأن نُناصح مَن ولَّاه الله أمرَنا؛ لأنَّ الدِّين النَّصيحةُ لله ولأئمَّة المسلمين وعامَّتهم، وعسى ألَّا أقول شيئًا إلَّا وعِلمُك يسبقني إلى القول بصحَّته، والاعترافِ بموجِبه، غير أنَّ قَولي هو من باب تنبيه الغافلين، والله يقول: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الذاريات: ٥٥]، فلا تجِدْ من نفسك مِن أجله؛ فإنَّك عزيزٌ عندي، والحقُّ أعزُّ عندي من كلِّ أحد، وأعوذ بالله أن أموت وأنا غاشٌّ لك أو كاتمٌ نصيحتي عنك.

ما ناصحَتْكَ خَبايا الوُدِّ مِنْ أحدٍ
ما لَم يَنَلْكَ بمَكروهٍ مِنَ العَذَلِ
موَدَّتي لكَ تَأبى أنْ تُسامِحَني
بِأنْ أَراكَ على شيءٍ مِنَ الزَّلَلِ

وكان بعض السَّلف يقول: «لو أنَّ لي دعوةً مُستجابة لصرَفتُها إلى السُّلطان»؛ لأنَّ صلاحه يترتَّب عليه صلاحُ رعيَّته.

أيُّها الأمير:

إنَّ العدلَ قوام الدُّنيا والدِّين، وصلاح المخلوقين، وهو الإلفُ المألوف، المؤمِّن من كلِّ خَوف، به تأليفُ القلوب، والتَأمَت الشُّعوب، والعدل مأخوذ من العدل والاستواء، وحقيقتُه وضعُ الأمور في مواضعها وأخذ الأموال من حلِّها، ووضعها في مَحلِّها، فجديرٌ بمن ملَّكَه الله بلادَه، وحكَّمه على عباده، أن يكون لنَفسه مالكا، ولطريق العدل والقصد سالكا، وللهوى والشَّهوات الخارجة عن حدِّ الاعتدال تاركا، فإذا فعَل ذلك ألزَم النُّفوس طاعتَه، والقلوبَ محبَّته، وأشرق بنور عدله زمانُه، وكثُر على عدوِّه أنصارُه وأعوانُه.

أيُّها الأمير:

إنَّ الدُّنيا مزرعةٌ للأعمال، ولكلِّ زارعٍ ما زرَعَه، والنَّاس شُهداء الله في أرضِه، فمِن واجب العاقل أن يزرَعَ الخير في النَّاس الذي يُذكَر به ويُشكَر عليه؛ فقد قيل:

ذِكرُ الفَتى عُمرُه الثَّاني وحاجتُهُ
ما فاتَهُ وفُضولُ العَيشِ أشغالُ

أيُّها الأمير:

إنَّ كلَّ الناس أو أكثرَهم تقعُ منهم الأخطاء في تصرُّفاتهم، فلا حَليمَ إلَّا ذو عَثْرَة، ولا طبيب إلَّا ذو تجربة، وكم ضارَّةٍ نافعة! وكم نعمةٍ لم تُشكَر عادَت على صاحبها نقمة! وخير النَّاس من وُعِظ بغيره.

وإنَّ هذه الحادثةَ التي قضَت بهلاك العدد الكثير من خواصِّ أصحابِك وخدَّامك بسبب غرَقهم في البحر، إنَّها كارثةٌ على كافَّة البلد، وهي بالخصوص عليك أكبرُ من كلِّ أحَد، ونحن نؤمن بأنَّهم ماتوا بآجالِهم التي لا يَستطيع أحدٌ تعجيلَها ولا تأجيلَها، لكنَّ الله سبحانه قد جعل لكلِّ شيء سببًا، وهذه المصيبة قد صارت حديثَ القَوم في مجالسهم وأنديتِهم؛ لأنَّهم يَعرفون بأنَّهم هلَكوا في طريقٍ غير مُرضٍ، وعملٍ غير محبوب، وصاروا يتذكَّرون به كلَّ ما عسى أن يُقال من كلِّ ما يُدركونَه عليك من العِثار.

كما أكثروا القيل والقال في المركب الضَّخْم، فأخذوا يبالغون في ثمنه ويخوضون في حديثه، والشَّيء بالشَّيء يُذكر، فهم يقولون: إنَّه اشتراه بالملايين من مال الدَّولة الذي هو مال الله، وليس بمالك ولا مال أبيك بدون

حاجة منك إليه، ثمَّ يترتَّب عليه الصَّرف الكثير من مال الدَّولة الذي هو مال الله في كلِّ شيء ما هو أكثر من ثمنه، فالنَّاس يقولون: ما بالك بثَمنه وما بالك بالصَّرف عليه؟!

والعاقل لا يَستهين بالكلام الذي هو بمثابة مَواقع السِّهام، ومن ابتغى الخيرَ اتَّقى الشَّر، وقد قيل: وإيَّاك وما يَسبق إلى القلوبِ إنكارُه، وإن كان عندَك اعتذارُه.

فمِن أجل هذه التَّصرُّفات دخَل في القلوب شيءٌ من الحَزازات عليك؛ لأنَّ النَّاس متَى رأَوا أو سَمِعوا بهذا الحَشد العظيم والجمع الكثير والاستعداد الكبير؛ من شَحن المراكب والدُّروب والأبوام، وما تشتمل عليه من حمل السيَّارات الكثيرة والطُّليور الثَّمينة، والآلات والأدوات والأمتعة والأطعمة، وما يترتَّب على ذلك من صرف المال الكثير حتَّى كأنَّه جهازُ جِهاد، ثمَّ الخوض بهم في أوحش البحار، وتعريضهم لمواقع الأخطار، كلُّه في سبيل قَنص حُبارى أو مئة حُبارى، أو أرنب أو شِبه أرنب، إنَّ النَّاس متى رأوا هذا التصرُّف فإنَّه من اللَّازم أن تُنكِره قلوبُهم، وتشمئزَّ منه نفوسُهم؛ لعِلمهم أنَّه عملٌ

خارجٌ عن نظام العدل وسياسة الحكم، وحتى لو فعله شخصٌ في نفسه وماله لوجَب على الحاكم الضَّربُ على يدِه بالحَجْر عليه.

كيف وقد اجتمَعَ في مدينة الدَّوحة عددٌ كبير من الوُزراء والسُّفراء والقناصل والأدباء والعلماء والكتَّاب ورؤساء الشَّركات، وكلُّهم شاخصةٌ أبصارُهم إلى فِعل الحاكم وإلى التَّحدُّث بتصرُّفاته؟! فهم بطبيعة عِلمهم يَعجَبون من هذه التصرُّفات الخارجة عن حدِّ الاعتدال؛ لغرابتها في نفوسهم وفي عهدهم وبلدهم ودينهم؛ لأنَّهم يعرفون تمام المعرفة بما درَسوه من العلم أنَّ ما تحتَ يدِ الحاكم من المال فإنَّه مالُ الله قد استخلَفه عليه، والله سائلُه عنه وناظرٌ كيف يَعمَل فيه.

أفترى أنَّ إنفاقَ هذا المال في سبيل السَّفر للقنص، أو أنَّ مشتري هذا المركب الضَّخم بالملايين من المال، أو أنَّ شراءك للعقارت الفخمة في شتَّى الأقطار؛ في سويسرا، ومصر، ولبنان، وطهران، وشيراز، ودبي، وبندر عبَّاس - أنَّه حلال؟ لا والله، هو حرام!

فإنَّ الحاكمَ العادلَ لا يحلُّ له من مال الدَّولة الَّذي

هو مال الله إلَّا بقَدر كفايته؛ لأنَّ في هذا العمل خوضًا في مال الله بغير حقٍّ.

ومن هذهِ الأشياء وما يُشبهها يَخرج بركانُ الكلام، والإنحاء بالملام، كيف والفِتَن قد أقبلَت كاللَّيل المظلِم، تُريد أن تبتلعَ أموال النَّاس بدون حدٍّ ولا عدٍّ، والأخطار مُحدِقة بالنَّاس من جميع الأقطار، والزَّمان ليس بزمان قَنصِ حُبارى وأرنب؟! وإنَّما هو زمانٌ يوجِب على العاقل - وبالخصوص الحاكم العادل - أن يَعمل فيه بالحَزْم، وفِعل أولِي العَزم؛ فإنَّ المسؤوليَّةَ عليه أكبر.

وإنَّما سُمِّي حاكمًا من أجل إحكامِه أمرَ بلده ورعيَّتِه؛ لهذا يجب أن تَستعمِل من الأمور أتقاها، ومن الأعمال أوثقَها وأبقاها، وأن تسعى بسدِّ كلِّ طريق يتطرَّق النَّاسُ إليه برمي سهام الكلام عليك؛ فقد قيل: «مَن هذَّب نفسَه فقد أرغم حاسدَه، ومَن قيل فيه ما هو متخلِّق به فلا يَلُم إلَّا نفسَه».

إنَّ خلاصة هذه النَّصيحة ينحصر في الوصيَّة بتقوى الله تعالى، والمحافظة على فَرائض طاعاته، وأن تُصلح ما بينك وبين الله يُصلِح الله ما بينك وبين النَّاس، وأن تَبذُل

الجهدَ في الإحسان إلى النَّاس؛ بقضاء حوائجهم، وتفريج كُرَبِهم، ومساعدة مَنكوبهم، ورحمةِ كبيرهم وفقيرهم؛ فإنَّ الإنفاق للمال في هذا السَّبيل هو المال الباقي الذي يترتَّب عليه شرَفُ الذِّكر، وعظيمُ الأجر؛ لأنَّ صنائع الإحسان تَقي مَصارع السُّوء، وطالما استعبدَ الإحسانُ إنسانًا.

إنَّ العاقلَ الحكيمَ والحازمَ الخبير، يُراعي التَّقدير وحُسن التَّدبير، ويُحارب الإسرافَ والتَّبذير، حتى ولو على نهرٍ من الماء كبير.

وهنا أشياء يُصرَف عليها المالُ على الدَّوام، ولعلَّك غنيٌّ عنها ولا حاجةَ لك بها؛ والصَّرف عليها من مال الدَّولة وهم لا حاجةَ لهم بها، فمنها: التَّوسُّع في المزارع في أرض عمان الذي لا تَعود عليك بمنفعةٍ بل بالمضرَّة الواضحة، ومثله التوسُّع في شراء العقارات في الدَّوحة وفي سائر البلدان، وكذلك كَثرة الخيول التي لا يُرجى أن يُغزى عليها في سبيل الله، ولا أن يُقاتَل عدوٌّ بها، فإنَّ هذه الأعمالَ تَستدعي كَثْرةَ الصَّرف للمال على الدَّوام، وتستدعي كَثرةَ القيل والقال من الخاصِّ والعام.

لهذا ينبغي الاقتصارُ على قدر الحاجة منها، والتخلِّي

عن كلِّ ما لا تقتضيه المصلحة ولا المنفعة، وقِس على ذلك كلَّ ما لا حاجةَ لك فيه، مثل زوائد السيَّارات القائمة على عجلاتها، تمرُّ عليها السَّنة بعد السَّنة حتَّى تذهَب ماليَّتها بدون حاجة إليها، وأنت أعرَفُ بما عسى أن تحتاج إليه وما لا تحتاج إليه؛ لأنَّ حفظَ المال خيرٌ من نَفاده في غير سبيله، والاقتصادُ خيرٌ كلُّه، وما خرج عن حدِّ الاقتصاد دخَل في مسمَّى السَّرَف؛ على حدِّ ما قيل: ما جاوز حدَّه، فقد جاوز ضدَّه.

وإنَّه باختصار هذه الأعمال والاقتصار على قدر الحاجة منها يتوفَّر عندك قدرٌ كبيرٌ من المال، تَستطيع أن تَصرفه في مَصارفه الشَّرعيَّة في سبيل البِرِّ والخير من الصَّدقات، وصِلة القَرابات، والإحسان إلى المساكين والأيتام وذَوي الحاجات، والتَّفريج على المكروبين والمنكوبين من ذَوي الهيئات، وتأسيس المشاريع الخيريَّة التي ينتفع منها النَّاسُ في الحياة، ويُرجى ثوابُها وأجرُها بعد الوفاة؛ مثل دار للأيتام، أو مستشفًى يخفِّف عن النَّاس شدَّة الزِّحام، ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلِأَنفُسِكُمۡۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ ٱللَّهِۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يُوَفَّ

﴿إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾﴾ [البَقَرَة: ٢٧٢].

إنَّ هذه النَّصيحة وهذه الوصيَّة، وإن رأيتَها ثقيلةً على النَّفس، لكنَّها بمثابة الدَّواء النَّافع الذي تُحمَد عاقبته، والمُخلِص الصَّادق في محبَّته يَسقي حبيبه الدَّواء المُر؛ ليَقِيَه من الوقوع في الضُّر، فهي صنيعُ مَن طَبَّ لمَن حَبَّ، وما أريدُ بها إلَّا الإصلاحَ ما استطعت.

فقد سبَقني القُرآن بهذه الوصايا الحسان؛ فقال: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [القصص: ٧٧].

أسألُ الله أن يجعلَنا وإيَّاكم من الذين يَهدُون بالحقِّ وبه يَعدِلون، فهذه نَصيحتي لك، والله خليفتي عليك، والسَّلام عليكُم ورحمة الله وبركاته»[1].

(١) مجلة "اللِّقاء" العدد (١٩)، الثُّلاثاء ١٨ أبريل ١٩٧٢م.

الفهرس

الموضوع	الصفحة
المقدِّمة	٥
الدِّين النَّصيحة	٧
الشَّعبي يقول الصِّدق معرِّضًا حياته للخطر	١١
سعيد بن المسيِّب يرفض مقابلة الخليفة	١٤
الزُّهري يبطل مزاعم المتملِّقين	١٦
موعظة سلمة بن دينار لسليمان بن عبد الملك	١٧
أبو حازم سلَمة بن دينار وبعض الأمراء	١٩
أبو حازم عند سليمان بن عبد الملك	٢٠
محمد بن واسع وبلال بن أبي بُردة	٢٧
ابن واسع وبلال بن أبي بُردة	٢٧
مالك بن دينار جريء في الحقِّ	٢٨
طاوس يعظ هشام بن عبد الملك	٣٠
أيُّ الكتابين أحقُّ بالطاعة	٣٢
عمر بن عبد العزيز يطلب النصيحة	٣٣
احذر	٣٥

سوَّار والمنصور ٣٦
الإمام الأوزاعي وعبد الله بن علي ٣٩
الأوزاعي والمنصور ٤١
الأوزاعي ينصح المنصور ٤٣
الأوزاعي يحثُّ المنصور على إنقاذ الأسرى ٥٣
ابن طاوس والمنصور ٥٥
سفيان الثَّوري يُبكي المنصور ٥٧
خطاب وجوابه بين عبيد الله بن عمر والمنصور ٦٠
ضرب الإمام مالك بن أنس ٦٣
مالك لا يريد إلزام الناس بالموطأ ٦٦
وصيَّة مالك للمهدي ٦٧
عمرو بن عبيد ٧١
علماء أمام المهدي ٧٣
الفُضيل بن عياض والرشيد ٧٦
الفُضيل والرَّشيد وابن السمَّاك ٨٣
ابن السمَّاك يعظ الرشيد ٨٥
عبيد الله العُمَري وهارون الرشيد ٨٧
الرَّشيد والعلماء ٨٨
منذر بن سعيد والخليفة عبد الرحمن الناصر ٩٨

الفرج بن كنانة والحكم بن هشام ١٠٣
نصر بن ظريف وعبد الرَّحمن بن معاوية ١٠٥
أبو الوفاء ابن عقيل وجلال الدَّولة (ملكشاه) ١٠٧
أبو الفرج ابن الجوزي والخليفة المستضيء ١١١
علي بن حبيب وجلال الدَّولة ابن بُوَيه ١١٣
الطُّرْطُوشي والملك الأفضل ١١٤
النووي والظاهر بيبرس ١١٧
سلطان العلماء يبيع الأمراء ١٢٣
شيخ الإسلام ابن تيميَّة وملك التتار ١٤٠
ابن تيميَّة المجاهد ١٥٤
الشيخ يقاتل الدُّروز ١٥٩
ابن تيميَّة وواقعة عسَّاف النَّصراني ١٦١
الشيخ عبد الرحمن بن حسن والإمام فيصل ١٦٠
نصيحة ثانية من الشيخ عبد الرحمن بن حسن إلى
الإمام فيصل ١٨٠
الشيخ سعد بن عتيق والإمام عبد العزيز بن عبد الرحمن
فيصل ١٨٦
سعيد النُّورسي يهاجم الماسونيَّة في المحكمة ١٩٢
العزُّ بن عبد السَّلام القطري يوجه رسالة إلى

الحاكم السَّابق في قطر ١٩٧
الفهرس ٢٠٩

آثار الشيخ زيد الفياض

تمتازُ بالجمع بين العلم الشرعيِّ الموثوق والثقافة الإسلاميَّة الأصيلة، مصوغةً بأسلوب سهل ومشرق، يُقنع العقلَ ويُلامس الوجدان.. كيف لا وصاحبُها فارسٌ من فرسان الميدان؟!

إنه الشيخُ زيد بن عبدالعزيز الفيّاض رحمه الله؛ نمطٌ فذٌّ بين علماء عصره، جمعَ بين التحصيل الشرعيِّ المتين والاطِّلاع على ما يروجُ في زمنه من أفكار وثقافة طارئة، فامتاز ببصيرة نافذة ناقدة لما يدورُ حوله من حوادث، وما يُلمَّع من فكر دخيل وفلسفات ومذاهبَ وافدة! فانتضى قلمَه بجَراءة، وبذل وُكدَه في كشف كلِّ ما يتهدَّد أمَّة الإسلام بصراحة، فغدت كتاباتُه وثائقَ تاريخيَّة مدوَّنة بيد خبير ثقة مقتدر.

وما خلَّفه الشيخ من تراث علميٍّ وفكريٍّ نافع، يتوزَّع بين كتب طُبعت ونَفِدَت، ومقالات نُشرت في الصحف قديمًا ولم تُجمَع، ومُسوَّدات بحوثٍ وكتب عاجلته المنيَّة قبل تحريرها وإخراجها.

ويُسعدنا في دار الأوائل للنشر أن نميطَ اللثامَ عن هذا التراث الرصين بتقديمه لأبناء عصرنا لينتفعوا بما فيه من علم ونصح وغَيرة. هذا ولم نألُ جهدًا في التصحيح والتحرير والعناية. ونسأله سبحانه التوفيقَ والقَبول، وأن يجعلَ هذا العِلمَ النافعَ في صحيفة صاحبه وناشره.

1234567890

توزيع مؤسسة الجريسي - الرياض - هاتف ٤٠٢٢٥٦٤